

الزبدة الرائقة

في شرح البردة الفائقة

بردة الإمام البوصيري، بشرح شيخ الإسلام القاضي

زكريا الأنصاري

مع نص البردة بخط شيخ الخطاطين في زمانه

ابن الصائغ القاهري

تقديم وتحقيق

الدكتور / عطية مصطفى

كلية أصول الدين - جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

١ - سلسلة «تراث الأزهريين»

يشهد التاريخ على أن الاعتناء بتراث الأسلاف دليل على حكمة الأمم والشعوب، فالأمم التي تحرص على تراث أسلافها، مستلهمة ما فيه من إيجابيات، تعينها على المضي قدما في معترك الحياة، ومعتبرة بما فيه من هفوات، تضعها نصب عينها كي لا تزل بها الأقدام، هي أمم رشيدة عالية الهمة.

وقد احتفت أمتنا الإسلامية العربية -عبر مختلف عصورها- بتراثها أيما احتفاء، فاعتنى كل جيل بتراث الأجيال التي سبقته، واتخذ ذلك الاعتناء مختلف الصور والأشكال، دراسة وتدرسا، ومعارضة ونقدا، وشرحا ونظما، ورواية وإجازة، وتحقيقا ونشرا، إلى غير ذلك من صور الاعتناء والاحتفاء بكنوز ونفائس تراثنا الإسلامي العربي.

وعلى هذا الدرب المبارك تواصل «كشيدة»^(١) للنشر والتوزيع» مسيرة نشر الأعمال التراثية، وهي المسيرة التي بدأتها أوائل العام الماضي (١٤٣٢ هـ) بسلسلة «تراث الأزهريين» التي لاقت من القبول والاستحسان ما يجعلنا نحمد الله عز وجل أن يسر لنا سلوك هذا الدرب.

(١) كلمة «كشيدة» هي من المصطلحات المستخدمة في فنون الخط العربي، وتعني الصلة أو الرابطة أو الامتداد، وهي كلمة فارسية الأصل.

إن سلسلة «تراث الأزهريين» والتي تُعنى بنشر الأعمال البارزة لشيوخ الأزهر وعلمائه، تهدفُ على وجه الخصوص إلى ما يلي:

١- الإسهام في إعادة الاعتبار إلى تلك المؤسسة الإسلامية العريقة، وبيان علو شأنها وشأن علمائها وشيوخها، وذلك من خلال تعريف القارئ والمتقف العربي بأعلام علماء وشيوخ الأزهر، وبما قدّموه للإسلام والبشرية من نتاج فكري يُمثّل الصورة الحقيقية الناصعة للإسلام، بسماحته وشموليته وموافقته للفطرة البشرية.

٢- تصحيح الكثير من المفاهيم المغلوطة التي انتشرت في عصرنا الحاضر نتيجة تهميش دور الأزهر وعلمائه في حياتنا المعاصرة، وذلك من خلال نشر الفهم السليم لحقائق الإسلام، كما تلقاه علماء الأزهر شيخاً عن شيخ في سلسلة مُباركة من السند تمتدّ حتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسلفنا الصالح.

٣- التأكيد على أهمية منهجية التلقي والإجازة، تلقي التلميذ عن الشيخ وإجازة الشيخ للتلميذ، في انتقال الفهم الصحيح للإسلام من جيل إلى جيل، وهي المنهجية المتبعة في الأزهر، والتي أفرزت أجيالاً من العلماء أثرت المكتبة الإسلامية بمؤلفاتهم في شتى علوم الإسلام.

إن كثيراً مما نعيشه في واقعنا المعاصر من خلط وتخبط في المفاهيم الدينية يرجع إلى تخلي قطاع عريض من المتصدين للدعوة عن هذه المنهجية، فأضروا أكثر مما نفَعُوا. أما علماء الأزهر فقد توارثوا علمهم، وتشكلت ملكاتهم الفقهية على أسس سليمة متوارثة عن سلفنا الصالح، مما يجعل تراثهم انعكاساً صادقاً للفهم الصحيح للإسلام.

إن هذه المنهجية العلمية المباركة هي التي جعلت الأزهر الشريف قلعةً من أعظم قلاع الإسلام، يلتجئ إليها المسلمون من شتى بقاع الأرض طلباً للسلامة في فهم الدين.

يقول الإمام الأكبر فضيلة الشيخ عبد الحليم محمود عن الأزهر ودوره ورسالته:

«عمل الأزهر هو تبليغ الرسالة الإسلامية، وتبليغ الرسالة الإسلامية هو أرفع منزلة وأشرف وظيفة لأنها رسالة الأنبياء ...

وقد انتشر أبناؤه في ربوع الأمة الإسلامية كالنجوم، رواداً يحملون العلم إلى كل صقع بعيد، فوسّع الله بهم رقعة الثقافة الإسلامية، وأنار بجهودهم آفاقاً أضاعوها بسنا الحنيفية السمحاء ...

وقد عرف التاريخ أن رجال الأزهر وقد حملوا هذه الأمانة، رسالة الإسلام طوال ألف عام، هم سدنة قلعة، وخمأة عرين، وجند حصن، تتبعث منهم الصيحة الحقيقية المؤمنة التي تظهر الإسلام على حقيقته، وتعرضه عرضاً ذاتياً من مبادئه وجوهره الأصيل ...

فحفظ الأزهر بذلك رسالته، وحقق وظيفته، فبات مؤكداً عند التاريخ والأمة أن الأزهر هو الأمين على هذا الدين، والمدافع عن ذاتيته، والساكن لكرامة شريعته.

ولقد عقد الله القلوب على محبته، وعلم الشعوب التوجه إليه، وأذهب عن أهله الحزن، وبارك فيه وإن تقلبت به السنين»^(١).

(١) من مقدمة فضيلته للطبعة الأولى لكتاب (الأزهر في ألف عام) للدكتور أحمد محمد عوف.

ويقول فضيلة الشيخ صالح الجعفري رضي الله عنه:

«الأزهرُ هو الأزهر؛ شرعُ إلهي وميراثُ محمدي، محفوظ بحفظ ما فيه، لأنه حوى القرآن وما فيه من فنون ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١)،

تُرفرف فوقه روحُ صاحب السنة، إذ فيه سننُ النبوية وعلماءُ أمته، الذين هم ورثته وخلفاؤه، فهو مكان نظر الله تعالى وعنايته، وموضع الذين استشهد بهم على وحدانيته ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾^(٢) ...

وجعل الله الأزهرَ موضعَ التفقه في الدين، وإليه الهجرة والثقرة، وبه الإنذار للشعوب والأمم، فهو أزهرُ الأمة المحمدية على اختلافِ ألسنتهم وألوانهم ﴿قُلْ لَا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٣)، وهو مكان لزيادة العلم التي أرشد الله تعالى إليها نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٤)، وهو مكان الحسنی وزيادة ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾^(٥)، فالحسنی هي العلم، والزيادة هي الزيادة منه والتفقه فيه والتبحر في معانيه ...

ولا يخلو شعب من الشعوب إلا وفيه أشباله أسودّ، عمائمهم تيجانهم، وعدتهم إيمانهم، وما من خيرٍ إلا وهم قادته والداعون إليه، ففي الجهاد هم السابقون، وفي الآراء هم المفكرون، ارتضاهم الله حملةً لدينه، وأئمة لعباده، ومرشدين لخلقه، فهم مصابيح الأمم، وأقمار الشعوب، وبهم إصلاح المجتمع

...

(١) سورة الحجر - آية ٩

(٢) سورة آل عمران - آية ١٨

(٣) سورة التوبة - آية ١٢٢

(٤) سورة طه - الآية ١١٤

(٥) سورة يونس - الآية ٢٦

لا يضل شعبٌ وفيه منهم عالم، فهم الزائرون على المنابر، وهم الخطباء في النوادي والكتابون في الصحف والمجلات. أقوالهم كالأسنة تقطع كل قول ضال، وتزجر كل منافق، وتهدي كل حائر، وتبين الغوامض من الأمور، والمشكلات من المسائل»^(١).

وفي تحية الأزهر، يقول أمير الشعراء أحمد شوقي:

قُمْ فِي فَمِ الدُّنْيَا وَحَيِّ الْأَزْهَرَ

وَانْتُرْ عَلَى سَمْعِ الزَّمَانِ الْجَوْهَرَ

وَاجْعَلْ مَكَانَ الدُّرِّ إِنْ فَصَلْتَهُ

فِي مَدْحِهِ خَرَزَ السَّمَاءِ النَّيِّرَا

وَادْكُرْهُ بَعْدَ الْمَسْجِدِينَ مُعْظَمًا

لِمَسَاجِدِ اللَّهِ الثَّلَاثِ مُكَبِّرَا

وَاخْشَعْ مَلِيًّا وَاقْضِ حَقَّ أُنَمَّةٍ

طَلَعُوا بِهِ زَهْرًا وَمَاجُوا أَبْحُرَا

كَانُوا أَجَلٌ مِنَ الْمُلُوكِ جَلَالَةً

وَأَعَزَّ سُلْطَانًا وَأَفْخَمَ مَنْظَرَا

إن ما خلفه علماء الأزهر وشيوخه من تراث فكري يتمثل في الآلاف من الكتب والرسائل والفتاوى، في شتى علوم الدين، هو أعظم وأكبر من أن تحيط به سلسلة من المطبوعات مهما كان حجمها.

(١) كلمة موجزة عن الأزهر - مقدمة كتاب (منبر الأزهر يترجم عن نعمة الله على آل جعفر).

لذلك فإن سلسلة «تراث الأزهريين»، لا تستهدف استقصاء ذلك التراث الثري الخصب بقدر ما تستهدف التعريف بنماذج متنوعة منه، بما يتيح تحقيق ما ترجوه هذه السلسلة من الأهداف آنفة الذكر.

وفي هذه السلسلة وفي غيرها من إصدارات التراث، تلتزم «كشيدة للنشر والتوزيع» بمنهجية نشر مسئولة، تستهدف خدمة النص وتسهيل قراءته وتعظيم الاستفادة منه، وذلك من خلال ما يلي:

أولاً: توثيق المخطوطة:

لم تطبع هذه الرسالة حتى الآن على حد علمنا، وقد اعتمدنا في إخراجها على مخطوطتين محفوظتين في مكتبة الأزهر الشريف، تحمل المخطوطة الأولى منها رقم ٧٦٤ع، ويشير تاريخ نسخها إلى الحادي عشر من ذي الحجة سنة ١١٥٥ هـ، أما المخطوطة الثانية فتحمل رقم ٥٨٤٤ع، ويشير تاريخ نسخها إلى السادس عشر من رمضان سنة ١٠٩٤ هـ.

ثانياً: تقديم النص:

١- التعريف بمؤلفه شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري الشافعي، وقد اعتمدنا بصورة أساسية في التعريف بفضيلته على ترجمته الواردة على الموقع الإلكتروني لدار الإفتاء المصرية.

٢- التعريف بناظم البردة الإمام البوصيري، وقد اعتمدنا في التعريف به على ما ورد من أخبار عنه في العديد من المصادر مثل «الأعلام» للزركلي، و«حسن المحاضرة» للسيوطي، وغيرها.

٣- مقدمة عن المديح النبوي وفضله، ومديح الأولين لرسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم، ثم مكانة البردة بين قصائد المديح، وتفاعل المسلمين معها في مختلف العصور، وأثرها في الشعر العربي.

ثالثا: التخريج والتعليق:

١- تخريج آي الذكر الحكيم، وتخريج حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أمكن التخريج. وقد كان العلامة القاضي زكريا الأنصاري يخرج أحيانا بعض الأحاديث أثناء الشرح، فقمنا بإثبات تخريجات فضيلته في الهوامش مميزة بخط تحتي.

٢- توضيح ما يرد في النص من كلمات أو إشارات غامضة، قد يستعصي فهمها.

رابعا: العناية بالإخراج الطباعي:

١- العناية بضبط الكلمات وإضافة علامات الترقيم، بما يتيح صحة وسهولة قراءة النص.

٢- تنسيق العناوين ومواضع النص ذات الأهمية الخاصة بصورة مختلفة عن تنسيق متن النص، بما يتيح سهولة التعرف عليها، وقد اشتمل شرح الشيخ الأنصاري على الكثير من الإشارات اللغوية، التي قمنا بإثباتها بخط رمادي أصغر قليلا من بقية النص، بما يتيح للقارئ الذي يريد التعرف بصورة أولية على معاني الأبيات أن يتجاوز تلك الإشارات في قراءته الأولى للنص.

خامسا: التقسيم والفهارس:

١- العناية بتقسيم النص إلى فقرات تعكس ما فيه من أفكار رئيسة، وترقيم أو عنونة تلك الفقرات أحيانا بما يتيح الرجوع إليها.

إن «كشيدة للنشر والتوزيع» وهي تُقدم هذه السلسلة، سلسلة تراث الأزهريين، لتتوجه إلى الله عز وجل بأن يتقبل هذا العمل، وأن يهيئ له من القبول لدى القارئ ما يليقُ بمكانة الأزهر وعلمائه، وأن يُعين على نشر المزيد من تراث علماء الأزهر الأجلاء.

٢- التعريف بشارح البُردة شيخ الإسلام زكريا الأنصاري^(١)

اسمه ونشأته:

هو الشيخ الإمام، شيخ مشايخ الإسلام قاضي القضاة زين الدين أبو يحيى زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري السُنَيْكي، نسبة إلى سُنَيْكة من قرى محافظة الشرقية بمصر، الأزهري، الشافعي. ولد ببلده سنَيْكة سنة ٨٢٤ هـ تقريبا (الموافق ١٤٢١ م).

نشأ الشيخ -رحمه الله- في بلده سنَيْكة، فابتدأ بحفظ القرآن ومبادئ الفقه ثم توجه إلى الجامع الأزهر سنة (٨٤١ هـ) فحفظ المتون كالمنهاج والألفية والشاطبية وبعض التسهيل وشرط ألفية الحديث وغيرها، ثم لم يلبث أن رجع إلى بلده فمكث بها مدة، ثم عاود القدوم إلى الأزهر فدرس العلوم كلها وتوسع فيها.

شيوخه:

أخذ شيخ الإسلام زكريا على عدد كبير من الشيوخ نذكر منهم:

١- الإمام الرُّحْلة زين الدين أبو النعيم رضوان بن محمد بن يوسف العقبى، الشافعي (ت ٨٥٢ هـ) قرأ عليه القرآن كله بقراءات الأئمة السبعة، كما

(١) ترجمة المؤلف مستقاة بتصرف من ترجمته المنشورة على الموقع الإلكتروني لدار الإفتاء المصرية.

قرأ عليه الشاطبية والرائية، وسمع عليه جزءاً من التيسير للداني، ومسند الإمام الشافعي، وصحيح مسلم، والسنن الصغرى للنسائي، وسمع عليه شرح معاني الآثار للطحاوي وآداب البحث، وشرح الألفية للعراقي.

٢- الإمام المقرئ نور الدين علي بن محمد بن الإمام فخر الدين عثمان ابن عبد الرحمن بن عثمان المخزومي البليسي ثم القاهري الشافعي والمعروف بإمام الأزهر (٧٩٩-٨٦٤ هـ) قرأ عليه بالسبعة كذلك.

٣- شيخ الإسلام شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الكناني العسقلاني الأصل، المصري المشهور بابن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢ هـ) أخذ عنه الحديث، وقرأ عليه السيرة النبوية لابن سيد الناس، وشرح الألفية للعراقي وأكثر صحيح البخاري وسنن ابن ماجه حيث مات ابن حجر قبل إكماله، وسمع عليه أشياء كثيرة في العربية، والأدب، والأصول، والمعقولات، وكتب له في بعض إجازاته: [وأذنت له أن يقرأ القرآن على الوجه الذي تلقاه، ويقدر الفقه على النمط الذي نص عليه الإمام وارتضاه، والله المسؤول أن يجعلني وإياه، ممن يرجوه ويخشاه إلى أن نلقاه].

٥- زين الدين أبو ذر عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الزركشي القاهري الحنبلي، المتفرد برواية «صحيح مسلم» بعلو (ت ٨٤٦ هـ)، أخذ عنه «صحيح مسلم».

٦- شرف الدين أبو الفتح محمد بن زين الدين أبي بكر بن الحسين القرشي العثماني المراغي القاهري الأصل المدني الشافعي (ت ٨٥٩ هـ). قرأ عليه في الحديث، والفقه، وغيرهما لما ورد المدينة في طريق حجه.

٧- جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأنصاري المحلي الأصل القاهري الشافعي (ت ٨٦٤ هـ).

٨- العلامة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن رجب بن طيِّبًا القاهري الشافعي المعروف بابن المجدي (ت ٨٥٠ هـ)، أخذ عنه الفقه، والنحو، وعلم الهيئة، والهندسة، والميقات، والفرائض، والحساب، والجبر، والمقابلة.

٩- القاضي عز الدين عبد الرحيم بن المؤرخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المصري الحنفي، المعروف بابن الفرات (ت ٨٥١ هـ)، سمع عليه العديد من كتب الحديث.

١٠- العلامة علم الدين صالح بن شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني القاهري (ت ٨٦٨ هـ).

١١- الشيخ برهان الدين أبي إسحاق الصالحي قرأ عليه كتاب «التبيان في آداب حملة القرآن» للنووي.

١٢- الإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد الحنفي المعروف بالكمال بن الهمام (ت ٨٦١ هـ).

كما أخذ طريق التصوف والذكر عن العديد من العلماء، وأذن له جماعة من شيوخه وغيرهم بالتدريس والإفتاء، وأجازه خلائق يزيدون على مائة وخمسين نفسًا ذكرهم في ثبته^(١).

صفاته وأخلاقه:

كان شيخ الإسلام زكريا مضرب المثل في حسن الخلق، رجاءً إلى الخير، منقاداً للمعروف ولو من الأدنى، منصفاً لمن حوله ولو صغيراً، غير متكبر بالعلوم والمشیخة، ضابطاً لأوقاته غير مضيع لعمره، سليماً من العوارض والعواطل، وكان -رضي الله تعالى عنه- غاية في الانهماك في

(١) الثبوت هو الصحيفة يُثبت فيها الأدلة، وثبَّت المُحدِّث: ما يجمع فيه مروياته وأسماء شيوخه.

طلب العلم، بارعاً في سائر العلوم الشرعية وآلاتها حديثاً، وتفسيراً، وفقهاً، وأصولاً، وعربية، وأدباً، ومعقولا، ومنقولا، فأقبلت عليه الطلبة للاشتغال عليه، وعُمر حتى رأى تلاميذه وتلاميذ تلاميذه شيوخ الإسلام، وقرت عينه بهم في محافل العلم ومجالس الأحكام، وقُصِدَ بالرحلة إليه من الحجاز والشام.

وقد عدّه جملة من العلماء المجدد على رأس القرن التاسع لشهرة الانتفاع به وتصانيفه. قال السيوطي: «لزم الجد والاجتهاد في القلم والعلم والعمل، وأقبل على نفع الناس إقراء وإفتاء وتصنيفاً، مع الدين المتين، وترك ما لا يعنيه، وشدة التواضع ولين الجانب، وضبط اللسان والسكوت».

وقال ابن حجر الهيثمي في كلامه عن شيوخه: «وقدّمت شيخنا زكريا لأنه أجل من وقع عليه بصري من العلماء العاملين والأئمة الوارثين، وأعلى من عنه رويت من الفقهاء والحكماء المسندين، فهو عمدة العلماء الأعلام، وحجة الله على الأنام، حامل لواء مذهب الشافعي على كاهله، ومحرر مشكلاته وكاشف عويصاته في بكرته وأصائله، ملحق الأحفاد بالأجداد، المتفرد في زمنه بعلو الإسناد، كيف ولم يوجد في عصره إلا من أخذ عنه مشافهة أو بواسطة أو بوسائط متعددة، بل وقع لبعضهم أنه أخذ عنه مشافهة تارة، وعن غيره ممن بينه وبينه نحو سبع وسائط تارة أخرى، وهذا لا نظير له في أحد من عصره، فنعم هذا التميز الذي هو عند الأئمة أولى وأحرى؛ لأنّه حاز به سعة التلامذة والأتباع، وكثرة الآخذين عنه ودوام الانتفاع».

وكان الشيخ مع ما كان عليه من الاجتهاد في العلم اشتغالا، وإفتاء، وتصنيفاً، ومع ما كان عليه من مباشرة القضاء، ومهمات الأمور، وكثرة إقبال الدنيا؛ لا يكاد يفتر عن الطاعة ليلاً ونهاراً، ولا يشتغل بما لا يعنيه، يصلي النوافل من قيام مع كبر سنه وبلوغه مائة سنة وأكثر، ويقول: «لا أعود نفسي

الكسل»، حتى في حال مرضه كان يصلي النوافل قائماً، وهو يميل يميناً وشمالاً لا يتمالك أن يقف بغير ميل للكبر والمرض، فقيل له في ذلك. فقال: «يا ولدي النفس من شأنها الكسل، وأخاف أن تغلبني، وأختم عمري بذلك» وكان إذا أطال عليه أحد في الكلام يقول له: عجل قد ضيعت علينا الزمان، وكان إذا أصلح القارئ بين يديه كلمة في الكتاب الذي يقرأه ونحوه يشتغل بالذكر بصوت خفي قائلاً: الله الله، لا يفتر عن ذلك حتى يفرغ.

وكان قليل الأكل لا يزيد على ثلث رغيف، ولا يأكل إلا من خبز خانقاه^(١) سعيد السعداء، ويقول؛ إنما أخص خبزها بالأكل؛ لأن صاحبها كان من الملوك الصالحين، وذكر أنه عمرها بإشارة النبي صلى الله عليه وسلم، وكان رضي الله تعالى عنه- كثير الصدقة مع إخفائها، وكان له جماعة يرتب لهم من صدقته ما يكفيهم إلى يوم، وإلى جمعة، وإلى شهر، وكان يبالغ في إخفاء ذلك حتى كان غالب الناس يعتقدون في الشيخ قلة الصدقة.

ما تولاه من المناصب:

١- التدريس بمقام الإمام الشافعي والنظر على أوقافه^(٢)، ولم يكن بمصر أرفع منصباً من هذا التدريس، ثم انضم إليه النظر على القرافة كلها.

٢- مشيخة خانقاه الصوفية.

(١) الخانقاه هي المكان الذي ينقطع فيه الصوفية للعبادة، واقتضت وظيفتها أن يكون لها تخطيط خاص، فهي تجمع بين تخطيط المسجد والمدرسة إضافة إلى الغرف التي ينقطع فيها الصوفية للعبادة والتي تسمى بالخلوي. وكان السلاطين والأمراء يخصصون الأوقاف للإنفاق على الخانقوات لما تؤديه من وظائف دينية وعلمية وخيرية، وتعد خانقاه سعيد السعداء هي أول خانقاه أنشأت في مصر.

(٢) نظارة الأوقاف هي السلطة التي تخول صاحبها في حفظ الأعيان الموقوفة وإدارة شئونها واستغلالها استغلالاً نافعا وإجراء العمارة اللازمة لها وصرف غلاتها إلى المستحقين. ويسمى من تثبت له هذه السلطة المتولي أو الناظر أو القيم.

٣- مشيخة مدرسة الجمالية.

٤- منصب قاضي القضاة، وكان ذلك بعد امتناع طويل في سلطنة خشقدم ولما ولي السلطنة قايتباي أصر على توليه قضاء القضاة فقبل، وكان ذلك في سنة ٨٨٦ هـ، واستمر مدة ولاية قايتباي وبعدها.

تلاميذه:

تتلمذ على شيخ الإسلام زكريا من لا يحصى كثرة من الطلبة، نذكر ممن نبغ منهم:

١- الشيخ العلامة فقيه مصر شهاب الدين أحمد الرملي المنوفي المصري الأنصاري الشافعي. (ت ٩٥٧ هـ).

٢- وولده العلامة شمس الدين الرملي.

٣- والشيخ العلامة الإمام مفتي الحجاز، وعالمها شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي السعدي الأنصاري الشافعي. (ت ٩٧٣ هـ أو ٩٧٤ هـ).

٤- الإمام العلامة فخر الدين عثمان السنباطي الشافعي. (ت ٩٣٧ هـ).

٥- قاضي القضاة ولي الدين محمد بن قاضي القضاة شهاب الدين أحمد ابن محمود بن عبد الله بن محمود بن الفرфор الدمشقي. (ت ٩٣٧ هـ).

٦- مفتي بعلبك محمد بن محمد بن علي الفصي البعلبي الشافعي، (ت ٩٤١ هـ).

٧- الإمام العلامة المحقق الشيخ تقي الدين أبو بكر بن محمد بن يوسف القاري ثم الدمشقي الشافعي. (ت ٩٤٥ هـ).

- ٨- الشيخ الإمام المحدث علاء الدين أبو الحسن علي بن جلال الدين محمد البكري الصديقي الشافعي. (ت ٩٥٢ هـ).
- ٩- الإمام العلامة الورع الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن محمد الأنطاكي الحلبي الحنفي، المعروف بابن حمادة. (ت ٩٥٣ هـ).
- ١٠- الشيخ الإمام برهان الدين إبراهيم بن العلامة زين الدين حسن بن عبد الرحمن بن محمد الحلبي الشافعي، المشهور بابن العمادي. (ت ٩٥٤ هـ).
- ١١- الإمام باكثر عبد المعطي بن الشيخ حسن بن الشيخ عبد الله المكي الحضرمي الشافعي. (ت ٩٨٩ هـ).
- ١٢- الشيخ العلامة مفتي البلاد الحلبية البدر بن السيوفي.
- ١٣- الشيخ العلامة بدر الدين العلاني الحنفي.
- ١٤- الشيخ الصالح الولي عبد الوهاب الشعراني.

مؤلفاته:

وقد رزق الشيخ -رحمه الله- جودة التأليف مع الكثرة واشتهر منها ما يلي:

- ١- أسنى المطالب في شرح روض الطالب، وهو شرح على روض الطالب في الفقه الشافعي لابن أبي بكر المقرئ اليمني والذي هو مختصر لروضة الطالبين، وقد ختم شيخ الإسلام تحقيقه بين يدي مؤلف المتن الشيخ المقرئ وذلك في سنة ٨٩٢ هـ.
- ٢- منهج الطلاب، متن في فقه الشافعية، وهو مختصر لمنهاج الطالبين للإمام النووي، وهو متن محكم متين.

- ٣- الغرر البهية في شرح البهجة الوردية، وهو شرحه الكبير على النظم المسمى بهجة الحاوي والمشهور بالبهجة الوردية لابن الوردي (ت ٧٤٧ هـ) الذي نظم فيه الحاوي الصغير لنجم الدين القزويني، وفرغ من نظمه سنة ٧٣٠ هـ، وقد فرغ شيخ الإسلام زكريا من تأليفه سنة ٨٦٧ هـ.
- ٤- تحرير تنقيح اللباب، وهو اختصار لتنقيح اللباب في الفقه، وقد شرحه العلامة زين الدين عبد الرؤوف المناوي (ت ١٠٣١ هـ).
- ٥- تحفة الطلاب بشرح تحرير تنقيح اللباب، وهو شرح لمختصره السابق.
- ٦- فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب، وهو شرح على منتهى السابق.
- ٧- لب الأصول، اختصره من جمع الجوامع للإمام ابن السبكي، وهو مختصر محكم متين.
- ٨- غاية الوصول بشرح لب الأصول، وهو شرح له على منتهى السابق فرغ منه سنة ٩٠٢ هـ.
- ٩- فتح الرحمن بشرح لقطة العجلان وبلّة الظمان للزركشي (ت ٧٩٤ هـ) في أصول الفقه.
- ١٠- تلخيص أسئلة القرآن وأجوبتها لأبي بكر الرازي.
- ١١- فتح الجليل ببيان خفي أنوار التنزيل، وهو حاشية على تفسير البيضاوي.
- ١٢- شرح الأربعين النووية.
- ١٣- الدقائق المحكمة في شرح المقدمة، شرح على المقدمة الجزرية في التجويد لشمس الدين بن الجزري (ت ٨٣٣ هـ).

١٤- تحفة الباري شرح الجامع الصحيح للبخاري، وهو شرح حافل لصحيح البخاري، طبع بالمطبعة الميمنية بالقاهرة ١٣٢٦ هـ في اثني عشر مجلدًا مع إرشاد الساري للقسطلاني.

١٥- إحكام الدلالة على تحرير الرسالة، شرح فيه الرسالة القشيرية في التصوف، وفرغ من تأليفه سنة ٨٩٣ هـ.

١٦- الأضواء البهجة في إبراز دقائق المنفرجة، وهو شرح على القصيدة المنفرجة لأبي الفضل يوسف بن محمد التوزري الشهير بابن النحوي.

١٧- الزبدة الرائقة في شرح البردة الفائقة، وهو شرح على البردة للبوصيري، وهو هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم ضمن سلسلة تراث الأزهريين.

١٨- الفتوحات الإلهية في نفع أرواح الذوات الإنسانية، في التصوف.

١٩- فتح الوهاب بشرح الآداب، وهو شرح على رسالة شمس الدين السمرقندي في آداب البحث والمناظرة، فرغ من تأليفه سنة ٨٦٨ هـ.

٢٠- بلوغ الأرب بشرح شذور الذهب، وهو شرح على متن شذور الذهب في النحو لابن هشام، فرغ من تأليفه سنة ٨٨٢ هـ.

وفاته:

توفي -رضي الله تعالى عنه- يوم الأربعاء ثالث شهر ذي الحجة سنة ٩٢٦ هـ، عن مائة وثلاث سنوات، وغسل في صبيحة يوم الخميس، وكفن ودفن بالقرافة الصغرى بترية الشيخ نجم الدين الخويشاتي بقرب مقام الإمام الشافعي، وصلي عليه صلاة الغائب بالجامع الأموي بدمشق.

ومن شعره ما قاله - رضي الله تعالى عنه - راجيا ومتوسلا:

إلهي ذنوبي قد تعاظمَ خطرُها	وليس على غيرِ المُسامحِ مثْكل
إلهي أنا العبدُ المُسيءُ وليس لي	سِواك، ولا علَمٌ لديّ ولا عمل
إلهي أفلني عثرتي وخطيئتي	لأنني يا مولاي في غايةِ الخجل
إلهي ذنوبي مثل سبعةِ أبحر	ولكنها في جنبِ عفوك كالبلل
ولولا رجائي أن عفوك واسِعٌ	وأنت كريمٌ ما صبرتُ على زلل
إلهي بحقِّ الهاشميِّ محمّدٍ	أجرني من النيرانِ إنني في وجل
وباللطف والعفو الجميل تولّني	وبالخيرِ فامننْ عند خاتمةِ الأجل

٣- التعريف بناظم البردة الإمام شرف الدين البوصيري

اسمه ونشأته:

هو محمد بن سعيد بن حماد بن الصنهاجي البوصيري المصري، شرف الدين، أبو عبد الله. ولد بقرية «دلاص» إحدى قرى بني سويف من صعيد مصر سنة ٦٠٨ هـ (١٢١٣ م) لأسرة ترجع جذورها إلى قبيلة «صنهاجة» إحدى قبائل البربر، التي استوطنت الصحراء جنوب المغرب الأقصى.

نشأ البوصيري بقرية «بوصير» القريبة من مسقط رأسه، وبعد أن استظهر القرآن الكريم، أخذ يطلب العلم والعربية على علماء عصره، حتى وقف على أغراضهما وجمع أشاتهما، فشدد إليه الرجال، وأخذ العلم عنه عدد كبير من العلماء المعروفين، كأبي حيان أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطي الأندلسي، وفتح الدين أبي الفتح محمد بن محمد اليعمرى الأندلسي الإشبيلي المصري، المعروف بابن سيد الناس... وغيرهما من العلماء الذين استفادوا من علمه ونهلوا من أدبه.

وقد أجاد البوصيري الخط، وتعلم قواعد هذا الفن على يد إبراهيم بن أبي عبد الله المصري وكان واحداً ممن اشتهروا بتجويد الخط في مصر، وشغل البوصيري عدداً من الوظائف في القاهرة والأقاليم، فعمل في صناعة الكتب خلال فترة شبابه، ثم عمل ككاتب للحسابات بمدينة بلبيس بالشرقية.

عاش الإمام البوصيري في القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي) في أجواء سادها اضطراب سياسي وفساد في الحياة الاجتماعية، واضمحلال في الحياة الأدبية والفكرية، وأثر ذلك على البوصيري في بواكير حياته، فأخذ ينقد تصرفات المحيطين به في العمل، إذ كان يعاني من أخلاقهم ما لا يلائم طبعه ولا يناسب عفته وصلاحه، وكان يضيق صدره بهم كثيرا، فنظم فيهم قصائد عدة يصف بها حالهم ويذكر مساوئهم، من جملتها قصيدته النونية التي مطلعها:

نقدت طوائف المستخدمين فلم أر فيهم رجلا أمينا

وما لبث البوصيري أن ترك وظيفته، وغادر إلى الإسكندرية واستوطنها حتى آخر حياته، وفي الإسكندرية عرف الإمام البوصيري شيخ الإسكندرية وعالمها الجليل سيدي أبا العباس المرسى الذي كان قد وفد إلى الإسكندرية سنة ٦٤٢ هـ.

تصوف البوصيري:

لازم البوصيري شيخه أبا العباس المرسى، وأقبل على طريقه الصوفي وتلمذ على يديه، فكان لهذه الصحبة المباركة أثرها العميق في توجيه البوصيري وصفاء روحه وقلبه.

يقول علي مبارك في خطته: «كان البوصيري وابن عطاء الله السكندري تلميذين لأبي العباس المرسى - فخلع على البوصيري لسان الشعر، وعلى ابن عطاء الله صاحب الحكم لسان النثر».

وقد وقف البوصيري شعره وفنه على مدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولا عجب في ذلك، فقد كان رضي الله عنه تلميذ العارف بالله أبي العباس المرسي، الذي أحب سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم، واتخذ من شريعته طريقه إلى الله حتى أصبح استشعار عظمته عليه الصلاة والسلام ماثلا في خاطره في كل حين، وكان أبو العباس المرسي يقول: «لو غاب ذكر محمد عليه السلام عن خاطري طرفة عين ما عدت نفسي مسلما».

وإذا كان هذا هو حال الأستاذ، فإن حال التلميذ كانت صورة صادقة من حال أستاذه، فغمر قلبه بحب الله ورسوله، وحمله هذا الحب على دراسة السيرة الطاهرة والإحاطة بدقائقها، وكانت تلك الإحاطة مدده الذي لم ينقطع وهو يصوغ مدائحه النبوية المتعددة، والتي تعد البردة والهمزية من أشهرها.

آثاره الأخرى:

ترك الإمام البوصيري -إضافة إلى البردة الشهيرة- عدداً كبيراً من القصائد، من أروعها في مدح النبي أيضاً قصيدة «الهمزية» الشهيرة التي تتكون من ٤٥٧ بيتاً، ويقول في مطلعها:

كيف ترقى رَقِيكَ الأنبياءُ يا سماءَ ما طاولتها سماءُ

ومن قصائده الرائعة أيضاً في مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، تصيدته «المُضْرية في الصلاة على خير البرية» التي يقول في مطلعها:

يارب صلْ على المُخْتارِ مِنْ مُضَرٍ والأنبيا وجميع الرُّسلِ ما ذُكِّروا
وصلْ ربُّ على الهادي وعترته وصحبه مَنْ لَطِيَ الدِّينِ قد نَشَروا

ومنها أيضا القصيدة المحمدية التي يقول في مطلعها:

محمدٌ أشرفَ الأعرابِ والعجمِ محمدٌ خيرُ مَنْ يمشي على قَدَمِ
محمدٌ باسِطُ المعروفِ جامعُهُ محمدٌ صاحبُ الإحسانِ والكرمِ
محمدٌ تاجُ رُسُلِ الله قاطِبَةُ محمدٌ صادقُ الأقوالِ والكَلِمِ

من روائع قصائده أيضا قصيدته «الحائِية»، التي تقع في ٥٨ بيتا، ويقول في مطلعها:

أمدائحُ لي فيك أم تسيبُحُ لولاك ما غفرَ الذُّنوبُ مديحُ
حُدُنْتُ أَنْ مدائحي في المُصطفى كفارة لي والحديثُ صحيحُ

والتي يقول في آخرها مناجيا الله عز وجل، متضرعا إليه:

يا من خزائنِ ملكِهِ مملوءةٌ كرما وبابُ عطائه مفتوحُ
ندعوك عن فقرٍ إليكَ وحاجةٍ ومجال فضلك للعباد فسيحُ
فاصفحْ عن العبدِ المسيءِ تَكْرُما إن الكريم عن المسيءِ صفوحُ

وقصيدته «الدالية» التي بدأها بحمد الله وتقديسه، فقال:

إلهي على كل الأمور لك الحمد فليس لما أوليتَ من نعمٍ حدُ
لك الأمرُ مِنْ قَبْلِ الزمانِ وبعده وما لَكَ قَبْلُ كالزمانِ ولا بعدُ
وحُكْمُكَ ماضٍ في الخلِيقِ نافِذُ إذا شئتَ أمرا ليس من كونه بُدُ
تُضِلُّ وتهدي من تشاء من الوري وما بيد الإنسانِ غيٌّ ولا رَشْدُ

اشتهر أيضا من قصائده لاميته التي عارض بها قصيدة الصحابي الجليل كعب بن مالك «بانت سعاد»، وبدأها البوصيري بداية وعظيمة إرشادية، فقال:

إلى متى أنت بالذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول
في كل يوم ترجى أن تتوب غدا وعقد عزمك بالتسوية محلول

ومن قصائده التي تتم عن تضلعه في علوم الدين والعقيدة، لاميته التي كتبها في تنفيذ عقائد اليهود والنصارى، وتقع في ١٥٣ بيتا، واستطاع البوصيري فيها أن يستعرض كل الحجج التي تناقلتها أجيال المسلمين في الرد على اليهود والنصارى، ومطلعها:

جاء المسيح من الإله رسولا فأبى أقل العالمين عقولا
قوم رأوا بشرا كريما فادعوا من جهلهم بالله فيه خلولا

وفاته

توفي الإمام البوصيري بالإسكندرية سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م)، ودفن في مسجده، الذي كان في الأصل زاوية صغيرة توالى عليها يد الإصلاح والترميم حتى شيد المسجد الحالي (سنة ١٢٧٤ هـ)، والذي يقع في مواجهة جامع سيدي أبي العباس المرسي، فجاور الإمام البوصيري أستاذه أبا العباس في حياته وبعد مماته، رضي الله تعالى عنهما.

٤- تقديم الكتاب

بقلم الدكتور عطية مصطفى
أستاذ الدعوة بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المحمود بكل لسان، المُقدَّس عن الشُّهود والعيان، المشهود بسويداء الجنان، عظيم السلطان، قوي الأركان، واضح البرهان، الذي لا يجري عليه زمانٌ ولا يُحيط به مكان، كان الله ولا شيء معه وهو على ما عليه كان.

والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان، والأعْمان الأشمّان، الدائمان الأبديان، المُستمرّان السرمديان على سيدنا محمد سيد ولد عدنان، إنسان عين كل إنس وجان، ومُورِدِ عَذْب كل ظمآن، بهجة الزمان ونفحة المكان، المعرّف به من ربه في سائر الأكوان، الذي فتح الله تعالى به النبوة في العوالم الأوليّة، وختم به الرسالات في دنيا البشرية، وعلى آله الأطهار المباركين ذوي الشجرة الزكيّة والقلوب الرضيّة والأرواح العليّة، وعلى صحابته الميامين ذوي الهمم العليّة والعزائم القويّة، الذين حازوا بصحبته أعلى مرتبة ومزية، وأعظم درجة وخصوصيّة، وعلى كل من سلك دريهم ولزم حزيهم ونال قُربهم وحُبهم، إلى يوم تقف فيه الخلائق أمام رب البرية، أما بعد...

فهذه مقدمة مباركة لبردة المديح النبوية، التي أفاضها الله تعالى على قلب ولسان شيخ المادحين الإمام أبي عبد الله محمد البوصيري رضي الله تعالى عنه، والتي كتب الله تعالى لها القبول لدى قلوب المحبين العاشقين، وعقول المؤمنين الصادقين المتعلقين والموقرين لخاتم الأنبياء والمرسلين، صلوات الله تعالى عليه وعلى إخوانه من النبيين وآله الطيبين وصحابته المكرمين.

المديح النبوي وفضله:

والمديح بصفة عامة هو الثناء على الممدوح بما يستحق من وصف حسن ومزايا جميلة ومناقب جليلة، أما مفهوم المديح النبوي لحضرته صلى الله عليه وآله وسلم فهو عبارة عن الثناء على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نثرا وشعرا، بتعداد ما أكرمه الله تعالى به من طيب الخصال وجميل الخلال، ووفرة مظاهر الجمال والجلال والكمال، وقد تسابق الصحابة رضي الله تعالى عنهم في ذلك، وكانوا يعددون أوصافه وأخلاقه نثرا ونظما، في حياته وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى كما سنرى ذلك في حينه.

ولا يدفع إلى المديح بصفة عامة سوى أمرين اثنين لا ثالث لهما: محبة الممدوح والتودد إليه وابتغاء رضاه وحبه، أو كسب العطاء المادي من الممدوح وذلك كمدح الشعراء للملوك والولاة والحكام والأغنياء لكسب عطاياهم. ولا شك أن مديح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من النوع الأول الذي يُعَبَّرُ فيه المادح عن حبه له صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو دليل على كمال الإيمان كما هو معروف، والذي هو من حب الله تعالى كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)^(١)، وكما

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم، ومسلم أيضا في كتاب الإيمان من صحيحه، باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال عليه الصلاة والسلام: (أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي)^(١).

والذي يُدقق النظر فيما ورد في كتاب الله تعالى من تكريم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وثناء عليه من الله عز وجل، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢)، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣)، وقوله سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنتَ لَهُمْ...﴾^(٤) إلى غير ذلك، يُدرك أن الله تعالى أثنى على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بما لم يُثنِ به على أحد سواه، وجعل ألسنة الخلق تلهج بذلك استجابةً لثناء الله تعالى عليه، وتحقيقاً لمعنى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾^(٥).

فكل المادحين يدور في فلك تحقيق هذا المعنى، ويغترفون من معين مدح الله تعالى لأخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا المعنى جاء قول بعضهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم:

يا مُصطفى مِنْ قَبْلِ نَشْأَةِ آدَمَ والكونُ لم تُفتَحْ له أغلاقُ
أَيُّومَ مخلوقٍ ثَناءَكَ بعدما أثنى على أخلاقِكَ الخلاقُ

أي لا يبلغُ كائنٌ مَنْ كان مَبْلَغُ ما قاله الحقُّ تعالى فيكَ، صلى الله عليك وسلم سيدي يا رسول الله!

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، والحاكم في المستدرک على الصحيحين.

(٢) سورة القلم - الآية ٤

(٣) سورة الأنبياء - الآية ١٠٧

(٤) سورة آل عمران - من الآية ١٥٩

(٥) سورة الشرح - الآية ٤

مديح الأولين في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

إن الثناء على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد واكب حياته من ولها، وتناقلت كتب السيرة أخبار هذا المديح والثناء من الأولين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فحين ولد حملة جدّه عبد المطلب وذهب به إلى كعبة المشرفة وطاف به، ولم يملك نفسه من الثناء على الوليد الجديد والمولود لسعيد، فقال:

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهدي على الغلمان أعيدّه بالبيت ذي الأركان

وقال فيه عمّه أبو طالب كما جاء في سيرة ابن هشام:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهالك من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواصل

وقد أورد ابن هشام في سيرته قصيدة أبي طالب الذي جاءت فيها هذه الأبيات، معقبا عليها بحديث الاستسقاء، فقال: أقحط أهل المدينة، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشكوا ذلك إليه، فصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فاستسقى، فما لبث أن جاء من المطر ما أتاه أهل الضواحي يشكون منه الغرق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم حوالينا ولا علينا)، فانجاب السحاب عن المدينة فصار حوالينا كالإكليل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لسره)، فقال له بعض أصحابه: كأنك يا رسول الله أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

قال: (أجل).

إن مدح النبي صلى الله عليه وسلم هو في حقيقة الأمر مدح للنبوة، وإن الثناء على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو في حقيقته ثناء على الرسالة وعلى من أرسله بها، لذلك كان صلى الله عليه وسلم يفرح حين يمدح، لا لشخصه وإنما لأن المدح لا يصدر إلا من محب صادق ومؤمن كامل الإيمان، ولا أدل على ذلك من قصة إسلام كعب بن زهير والتي رواها الحافظ البيهقي في دلائل النبوة، وابن عبد البر في الاستيعاب، وغيرهم، حيث أنشد كعب بن زهير قصيدته «بانت سعاد» بين يدي رسول الله معترداً بها عما بدر منه، مادحا فيها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فسُرَّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعطاه برده. وذكر ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب أن كعبا لما انتهى إلى قوله:

إن الرسول لنورٍ يُستضاء به مُهتدٍ من سيوف الله مسلول

قال: فأشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى من معه أن اسمعوا. لذلك كان الصحابة لا يرون بأساً في إنشاد قصائد المديح في المسجد، وقد أورد الإمام البخاري رضي الله تعالى عنه في كتاب الصلاة من جامعه الصحيح باباً ترجم له بقوله: «باب الشعر في المسجد»، وفقه البخاري -كما يقولون- يُعرف من تراجمه^(١).

وأخرج البخاري أيضاً في كتاب بدء الخلق من صحيحه، بسنده عن أبي هريرة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

(١) وأورد النسائي أيضاً في كتاب المساجد من سننه باباً بعنوان «باب الرخصة في إنشاد الشعر الحسن في المسجد».

(أجب عني، اللهم أيده بروح القدس)، قال: نعم. والمرادُ بروح القدس سيدنا جبريل عليه السلام، بدليل حديث البراء بن عازب عند البخاري بلفظ: (اهْجُهم أو هاجهم وجبريلُ معك) (١).

وأورد الترمذي وأبو داود وأحمد، من حديث أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لِحسان منبرا في المسجد يهجو عليه الكفار (٢).

ومن جميل ما قاله حسان بن ثابت في مديح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله:

أغرُّ عليه لِلنُّبُوَّةِ خِـاَتَمَ	مِنْ الله ميمونٌ يَلُوحُ ويشهدُ
وضمَّ الإلهَ اسمَ النبيِّ إلى اسمِهِ	إذا قالَ في الخَمْسِ المؤنَّ أشْهَدُ
وشقَّ لَهْ مِنْ اسمِهِ لِجِلْهَ	فدو العرشِ محمودٌ وهذا مُحَمَّدُ (٣)

وقوله أيضا:

وأجملُ مِنْكَ لَمْ تَرْقُ عيني	وأكملُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءَ
خُلِقْتَ مُبرِّءاً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ	كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ (٤)

(١) رواه البخاري في كتاب الألب، باب هجاء المشركين.

(٢) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لِحسان منبرا في المسجد، فيقوم عليه يهجو من قال في رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن روح القدس مع حسان ما نافخ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم).

(٣) انظر ديوان حسان بن ثابت، بشرح عبد الرحمن البرقوقي، قافية الدال.

(٤) انظر ديوان حسان بن ثابت، بشرح عبد الرحمن البرقوقي، قافية الألف.

المديح والمتشددون:

يشتبه على البعض أمرُ المديح النبوي ويظنون أنه لا يجوز، ويتشبهون بحديث لم يفهموا مراده، ويستدلون به في غير موضعه، وهو الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله)^(١).

والحديث يدعو إلى المديح ويحض عليه ولا يمنعه، فالنهي في الحديث مقيد، والنهي المقيد ينبغي أن يفهم في ضوء قيده، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلم أن صالح أمته سوف يمدحونه بما مدحه الحق تعالى به، وهذا أمر لا بد منه، فكل أمة تمدح نبيها لأن مدح الرسول مدح لرسالته وتمجيد لمن أرسله تبارك وتعالى، لكنه يحذرهم من أن يصل هذا المدح إلى حد التأليه أو البتوة لله تعالى، والذي وقعت فيه بعض الأمم حين انحرفت في مدح أنبيائها، ويفهم هذا جلياً من ذلك القيد الموجود في الحديث نفسه.

لهذا لم يقف الحديث عائناً أمام مدحه صلى الله عليه وآله وسلم عند كل من فهمه فهماً صحيحاً، فجاء مدحه صلى الله عليه وآله وسلم على السنة الصحابة الأجلاء والتابعين العظماء وصلحاء الأمة سلفاً وخلفاً، دون أن ينزعجوا من النهي عن الإطراء لأنه مقيد بما حفظهم الله تعالى منه، على ما يفهم من قوله صلى الله عليه وآله وسلم (وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي...) ^(٢).

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء من صحيحه، باب (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجنائز من صحيحه، باب الصلاة على الشهيد.

والى هذا النهي المقيّد أشار الإمام البوصيري رضي الله تعالى عنه في
البردة، فقال:

دُعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَذْحًا فِيهِ وَاحْكُمِ
وَانْسِبْ إِلَى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ وَانْسِبْ إِلَى قَدَرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ حَكَمٍ
فَإِنْ فَضَلَ رَسُولُ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ فَيُعْرِبُ عَنْهُ نَسْاطِقُ بَقَمٍ

والحقُّ أنه لا ينبغي لعاقِلٍ أن يجتزَّ من النصِّ ثم يأخذ حكماً على هواه،
كما لا يجوزُ الاستِشهادُ ببعضِ الأحاديثِ دون معرفةِ مُرادِ الشرعِ منها، فهناك
أحاديثٌ تتجه إلى نهْيِ بعينه، يُفصّلُ معانيها أحاديثٌ أخرى، وذلك مثل
الحديثِ الذي رواه الإمام مسلم بسنده عن المقداد بن عمرو قال: (أمرنا رسولُ
الله صلى الله عليه وسلم أن نَحْتِيَ^(١) في وجوه المدّاحين التراب).

فهذا الحديثُ ينهى عن أن تَمْدَحَ إنساناً في وجهه وبحضوره، وإن كان ما
تَمْدَحُه به مما اتَّصَفَ به فعلاً، بينما صدرَ المَدْحُ منه صلى الله عليه وسلم
لأناسٍ في حُضورهم، وقد قال أيضاً عليه الصلاة والسلام في الحديثِ الذي
رواه الحاكم في المستدرك والطبراني في المعجم الكبير بسنديهما عن أسامة بن
زيد: (إذا مَدَحَ الْمُؤْمِنُ فِي وَجْهِهِ رِبا الإِيْمَانُ فِي قَلْبِهِ)، فخصَّصَ هذا الحديثُ
المنعَ في الحديثِ السابق بما إذا خيف على الممدوحِ الغرورُ والزهو والخِيلاءُ،
فَيَمْنَعُ المَدْحُ في حضرته، وهذا ما فهمه الإمام مسلمٌ من حديثِ النهي الذي
أورده، لذلك أدرج الحديثَ في صحيحه في باب بعنوان: «النهي عن المدح إذا
كان فيه إفراطٌ وخيفٌ منه فتنةٌ على الممدوح»، فلا بد من فهم الأحاديثِ فهما
صحيحاً، ولا بد من أخذ العلم عن أهله، جزى الله عنا شيوخننا خير الجزاء.

(١) وفي رواية الترمذي وابن ماجه وأحمد: (أن نحتو).

بردة الإمام البوصيري وسبب تأليفها:

أنشأ الإمام البوصيري رضي الله تعالى عنه قصيدة البردة في مرض ألمَّ به، وقد اجتمع لهذه القصيدة صدقُ الجنان وفصاحةُ اللسان وقوةُ البيان وحرارةُ العاطفة، وقد جاءت قصيدته هذه في لحظة اضطرابٍ وساعة انكسارٍ وافتقار، وجو ضراعة خاص، كان المادح فيه قد سُدت أمامه كلُّ الأبواب، إلا باب عشق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبِّه الصادق، الذي لا ينضبُّ منه قلبُ ولي من الأولياء في سائر الأحوال وشتى الظروف، فتوسل بذلك الحب وهذا العشق لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الله تعالى، فعبرَ عن حبه وعشقه لرسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه القصيدة. لهذا قال أميرُ الشعراء أحمد شوقي في قصيدته «نهج البردة» متحدثاً عن مديح الإمام البوصيري:

مديحه فيك حُبُّ صادقٍ وهوى وصادقُ الحبِّ يملأ صادقَ الكلمِ

يُحدِّثنا الإمام البوصيري رحمه الله تعالى عن الجو الذي قيلت فيه هذه البردة فيقول^(١): «.. داهمني الفالج (الشلل النصفي) فأبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه، فعملتها واستشفعتُ بها لله تعالى في أن يُعافيني، وكررت إنشادها ودعوت وتوسلت ونمت، فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فمسح على وجهي بيده المباركة وألقى عليَّ بردة^(٢)، فانتبهتُ ووجدتُ فيَّ نهضةً، ففممتُ وخرجتُ من بيتي، ولم أكن أعلمتُ بذلك أحداً، فلقيني بعضُ الفقراء^(٣)، فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحتَ بها رسولَ الله صلى الله عليه

(١) يأتي ذكر ذلك على لسان الشارح شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري رضي الله عنه في نهاية الشرح، وإنما سقناه هنا لبيان الجو العاطفي الذي قيلت فيه القصيدة.

(٢) وهذا سبب تسمية هذه القصيدة بالبردة تيمناً ببردة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو من أسباب قبولها وانتشارها.

(٣) أي أحد الصالحين.

وآله وسلم، فقلتُ: أي قصائدي؟ فقال: التي أنشأتها في مرضك، وذكر أولها
...».

تفاعل المسلمين مع البردة:

لم يشتهر أحدٌ في مجال مدح خير البرية صلى الله عليه وآله وسلم، مثلما
اشتهر البوصيري صاحبُ البردة الشهيرة التي فاقت شهرتها شهرةً صاحبها،
والتي تُعتبر من الفرائد في مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تلقاها
العلماء في مشارق الأرض ومغاربها عرباً وعجماً بالقبول والإجلال، حتى إنها
كانت الهدية التي قدمها العلامة ابن خلدون إلى تيمورلنك، كما كان الأمير عبد
لقادر الجزائري يكتب على رايته التي جاهد تحتها الفرنسيين بيتاً من أبياتها،
وهو البيت الذي يقول فيه الإمام البوصيري:

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسدُ في آجامها تجم

وأصبحت البردة من أهم القصائد التي يتغنى بها المذاحون في الليالي
لدينية وفي الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف، بل دأب المسلمون في العديد
من البلدان على إقامة مجالس أسبوعية للبردة يجتمعون فيها لقراءتها بصورة
جماعية، مرددين البيت التالي بعد كل بيت من أبياتها:

مولاي صلّ وسلّم دائماً أبداً على حبيبك خير الخلق كلهم

وذكر العلماء في حكمة اختيار هذا البيت للتكرار، أن الناظم رضي الله
عنه لما أنشأ هذه القصيدة رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في
لنم، فأنشدها بين يديه فطرب صلى الله عليه وسلم لها وأعجبته، فلما انتهى
إلى قوله: «فمبلغ العلم فيه أنه بشر» وقف الناظم ولم يستطع أن يكمل البيت،
يقال عليه الصلاة والسلام له: (قل: وأنه خيرُ خلق الله كلهم)، فأدرج الإمام

البوصيري هذا المصراع في البيت المتقدم، وجعله مطلعاً يُردّد بعد كل بيت، صلاةً مُكرّرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحية، وحرصاً على لفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ناحية أخرى، تبرّكاً به عليه الصلاة والسلام.

ويصف زكي مبارك في كتابه المدائح النبوية تأثير البردة في مجتمعات المسلمين فيقول:

«نستطيع الجزم بأن الجماهير في مختلف الأقطار الإسلامية لم تحفظ قصيدةً مطولة كما حفظت البردة، فقد كانت ولا تزال من الأوراد، تُقرأ في الصباح وتُقرأ في المساء، وكنت أرى لها مجلساً يُعقد في ضريح سيدنا الحسين بعد صلاة الفجر من كل يوم جمعة، وكان لذلك المجلس رهبةً تأخذ بمجامع القلوب...».

ثم يقول متحدثاً عن الأثر التعليمي والتربوي للبردة:

«والبوصيري بهذه البردة هو الأستاذ الأعظم لجماهير المسلمين، ولقصيدته أثرٌ في تعليمهم الأدب والتاريخ والأخلاق، فعن البردة تلقى الناس طوائف من الألفاظ والتعابير غنيت بها لغة التخاطب، وعن البردة عرفوا أبواباً من السيرة النبوية، وعن البردة تلقوا أبلغ درس في كرم الشماثل والجلال، وكذلك استطاع البوصيري بتصوفه أن يؤثر في الأدب والأخلاق تأثيراً لا يدرك كُنْهه إلا مَنْ رأى كيف تدور البردة على ألسنة العوام، وكيف تُهذّب ما انطبعوا عليه من عنجهية الخصال، وليس من القليل أن تنفذ هذه القصيدة بسحرها الأخاذ إلى مختلف الأقطار الإسلامية، وأن يكون الحرص على تلاوتها وحفظها من وسائل التقرب إلى الله والرسول.».

أثر هذه القصيدة في الشعر العربي:

لقد ظلت قصيدة البردة مصدر إلهام لكثير من الشعراء على مر العصور الدهور، يحذون حذوها وينسجون على منوالها، وينتهجون نهجها، ومن أبرز أظهر معارضات الشعراء عليها قصيدة «نهج البردة» لأمير الشعراء أحمد موقي، والتي تقع في ١٩٠ بيتاً مطلعها:

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

والتي يقول فيها مُعترفاً بفضل الإمام البوصيري وبردته:

المادحون وأرباب الهوى تبّع لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم
مديحه فيك حبّ خالص وهوى وصادق الحب يملأ صادق الكلم
الله يشهد أني لا أعارضه من ذا يعارض صوب العارض العرم
وإنما أنا بعض الغابطين ومن يغبط وليك لا يذمّ ولا يلم

ولم يقف الاهتمام بالبردة لدى الشعراء والمادحين عند حد المعارضة والنسج على المنوال فقط، وإنما حظيت باهتمام بالغ في دنيا الشعر، فقد شطروها وخمسوها وسبعوها وعشروها^(١)، وقد ذكر الدكتور زكي مبارك في كتابه «المدائح النبوية» أمثلة ذلك، حتى ذكر أن الذين خمسوها نحو الثمانين شاعرا، وكان الإمام الفيومي أشهر من خمسها، في حين كان الإمام البيضاوي هو أشهر من سبعها، رحمة الله عليهم جميعا.

(١) التشطير أن يأتي الشاعر بشرط البيت من القصيدة التي يريد تشطيرها، ثم يأتي بعجز البيت من إنشائه هو على نفس الوزن والروي والمعنى، ثم يأتي بصدر بيت من إنشائه ثم يختم بعجز البيت الأول من قصيدة سابقة، والتخميس أن يأتي بثلاثة شطرات قبل البيت من القصيدة التي يريد تخميسها، والتسبيع أن يأتي بخمس شطرات، والتعشير أن يأتي بثماني شطرات.

شروح البردة:

اعتنى الكثير من العلماء بشرح هذه القصيدة المباركة وإعرابها وتدريسها في المساجد، ويقول أحد شراح هذه القصيدة وهو ابن العماد الإقفهسي مبيّناً سبب إقباله على شرحها:

«إن على كل مكلف أن يبحث عن صفات سيد المرسلين ليقْتَدِيَ به ويأخذ بطريق السالكين، ولما كانت هذه القصيدة مشتملة على جُمَلٍ من صفاته ومعجزاته وأخلاقه صلى الله عليه وسلم، كانت جديرة بأن تكون مناط اهتمام ومحلا لعدد من الشروح».

وقد أحصى الدكتور زكي مبارك عشرين شرحا لها في كتابه «المدائح النبوية»، إضافة إلى مجموعة أخرى من الشروح لا يعرف مؤلفوها.

ومن أشهر شروح البردة:

١- شرح الشيخ ملا علي القاري الحنفي المتوفى سنة ١٠١٤ هـ

٢- شرح الشيخ جلال الدين المحلي الشافعي، المتوفى سنة ٨٦٤ هـ

٣- شرح شيخ الإسلام زكري الأنصاري، المتوفى سنة ٩٢٦ هـ، وهو هذا

الشرح الذي نقدم له

٤- شرح الشيخ القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣ هـ

٥- شرح الشيخ إبراهيم الباجوري المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ

البردة وفن الخط العربي

كان ابن مقلة (ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م) هو أول من هندس الحروف العربية وقدر مقاييسها وأبعادها بالنقط، وضبطها ضبطاً محكماً، وقد قال ابن مقلة نفسه إنه اخترع هذا الخط حتى يكتب به القرآن «فإن القرآن نزل بنسبة إلهية فاضلة، فيجب أن يكتب بنسبة إلهية فاضلة».

ارتبط فن الخط العربي إذن منذ نشأته بالقرآن الكريم، وقد أنشئ هذا الارتباط علاقة روحية بين الخطاط وبين الخط، حتى قيل: «نقاء الكتابة من نقاء النفس»، وحتى اعتبروا أن الخطاط لا يصل إلى قمة طريقه إلا إذا كتب المصحف الشريف، وحرص لذلك أفاض الخطاطين في مختلف العصور والأمصار على كتابة المصحف الشريف، وبرعوا وتفننوا في ذلك، حتى إن الواحد منهم كان يحرص على كتابة المصحف أكثر من مرة، ويروى أن ابن البواب (ت ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م) كتب أربعة وستين مصحفاً، وأن ياقوت المستعصمي (ت ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م) كتب سبعة مصاحف.

ولم تتوقف عناية هؤلاء الخطاطين المبدعين عند حدود النص القرآني، بل برعوا في فنون أخرى كالزخرفة والتذهيب، لما رأوه من كونها وسيلة إيجابية تسهم في توصيل الرسالة التي يريدون تحقيقها بواسطة الخط، حرص الكثير من الخطاطين أيضاً على التفنن في كتابة بعض النصوص الأخرى ذات الأهمية الخاصة كالأحاديث النبوية أو الوصايا والأشعار الدينية.

ولما كانت قصيدة البردة التي أنشدتها الإمام شرف الدين البوصيري في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم من أروع ما قيل في مدحه صلى الله عليه وسلم، لم يكن بالمستغرب على الخطاط المسلم أن يحتفي بهذا النص ويبدع في كتابته، تقربا إلى الله عز وجل وتوددا إلى حبيبه صلى الله عليه وسلم.

وتمثل نسخة القصيدة التي كتبها ابن الصائغ (ت ٨٤٦ هـ / ١٤٤٢ م) شيخ الخطاطين في زمانه، والتي نقدمها ضمن هذا الإصدار، نموذجا متميزا لاحتفاء الخطاطين المبدعين بنص البردة، وانعكاسا لمكانة البردة في قلوب المؤمنين وأثرها في نفوسهم.

كان ابن الصائغ (زين الدين عبد الرحمن بن يوسف القاهري) شيخ الخطاطين في زمانه، وقد قال عنه الحافظ السخاوي في الضوء اللامع: «... وتصدى الزين المذكور للتكتيب، فانتفع به الناس طبقة بعد أخرى، ونسخ عدة مصاحف وغيرها من الكتب والقصائد، وصار شيخ الكتاب في وقته بدون مدافع، ... وشهد له شيخنا (يعني: ابن حجر العسقلاني) مع كونه الغاية في إتقان الفن بمهارته وبراعته...».

وكغيره من كبار الخطاطين نسخ ابن الصائغ عدة مصاحف كما أشار إلى ذلك الحافظ السخاوي، يوجد منها بدار الكتب المصرية مصحفان، كتب ابن الصائغ أحدهما (مصحف السلطان برقوق) سنة ٨٠١ هـ، والآخر سنة ٨١٤ هـ.

أما عن نسخة البردة المنشورة ضمن هذا الإصدار، والم محفوظة أيضا بدار الكتب المصرية، فقد كتبها ابن الصائغ سنة ٨٠٤ هـ، وعليها وقف باسم

السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري، حيث كانت موقوفة على جامع الكائن بخط العنبرانيين، وقد أحضرت من كتبخانة جامع الأشرف لتستقر بقسم المخطوطات بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٥٥ أدب، وتشتمل هذه المخطوطة أيضا على تخميس يعد من أقدم التخميس على قصيدة البردة، وهو لناصر الدين محمد بن عبد الصمد الفيومي.

ولم يتوقف احتفاء الخطاطين المسلمين بالبردة بعد ابن الصائغ، فكتبها الكثير من الخطاطين على مر العصور، كان من أبرزهم من المتأخرين الشيخ عبد العزيز الرفاعي، إمام الخطاطين في القرن العشرين (ت ١٩٣٤ م)^(١).

(١) جدير بالذكر هنا أيضا أن وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع في دولة الإمارات العربية المتحدة، تنظم منذ العام ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، مسابقة سنوية في الشعر والخط العربي والزخرفة الكلاسيكية موضوعها «البردة»، وذلك في إطار احتفالاتها بذكرى المولد النبوي الشريف.

«... بعضنا إذا نظرَ إلى نتاج الحضارة الإسلامية نظرَ إلى ظاهرها، وتمتّع بجمالها في العمارة، والخطّ، والتذهيب للمصاحف والكتب، والفُسيفساء، والسُجّاد والكليم، وقليلٌ أولئك الذين ينظرون إلى ذلك كلّهُ، فيغوصون إلى النموذج المعرفي الكامِن وراءَ الظاهر، ويصلون إلى رمزية ما أمامهم، ودلالاتِ الأشياء على ما تجسّدُهُ من معانٍ وأفكار، ويعرفون علاقةَ ذلك بالعقائد والأخلاق القائمة في قلوب المبدعين أو المدركة في عقول الحرفيين المقلّدين، ويستدلون على ذلك في تحليلٍ رائع على مدى المعرفة بالله والحبّ له سبحانه والمهابة منه تعالى شأنه، ويربطون بين ذلك كلّهُ وبين الرؤية الكلية للإنسان والكون والحياة التي كانت سائدةً أو شائعةً في عصرهم، أو تلك التي اشترك فيها البشرُ أو انفرد بها بعضهم.

إنه شيءٌ بديعٌ وجميلٌ أن تمتّع بالظاهر الذي يوصلنا إلى الباطن... وبالشكل الذي يربطنا بالمضمون... وبالجمال البصري الذي يوصلنا إلى الاطمئنان البصري.

إنه شيءٌ بديعٌ رائعٌ أن نتجاوزَ التلقّي إلى الفهم... ونتجاوزَ الفهم إلى التصديق، ونتجاوزَ التصديق إلى المعيشة والحياة، فيتم لنا بذلك التمتع بالجمال»^(١).

(١) من مقدمة فضيلة الإمام العلامة الدكتور علي جمعة، مفتي الديار المصرية، لكتاب «روائع فن الخط والتذهيب القرآني» للشيخ أبي بكر سراج الدين.

الزبدۃ الرائقة في شرح البردة الفائقة

بشرح شيخ الإسلام القاضي
زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَلِكِ الْوَهَّابِ، الْمُتَفَضِّلِ بِمَا مَنَحَ مِنَ الثَّوَابِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
عَلَى سَيِّدِ الْأَنْبَاءِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْبَرَّةِ الْكِرَامِ، وَبَعْدُ،

فهذا شرحٌ على البُرْدَةِ الْمَنْظُومَةِ على بَحْرِ الْبَسِيطِ، في مَذْحِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ،
نَظَمَ الْعَالِمُ الْعَارِفُ بِاللَّهِ تَعَالَى، شَرْفُ الدِّينِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ
حَمَّادِ الْمِصْرِيِّ الْبُوصَيْرِيِّ، طَيَّبَ اللَّهُ ثَرَاهُ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ مَثْوَاهُ، يَحُلُّ أَلْفَاظَهَا،
وَيُبَيِّنُ مُرَادَهَا، وَيَفْتَحُ أَقْفَالَهَا، وَسَمَّيْتُهُ بِـ

«الزُّبْدَةُ الرَّائِقَةُ فِي شَرْحِ الْبُرْدَةِ الْفَائِقَةِ»

وَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يَنْفَعَ بِهِ، وَيَجْعَلَهُ خَالِصاً لَوَجْهِهِ.

ثُمَّ قَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِالْإِبْتِدَاءِ بِالْبِسْمَلَةِ ثُمَّ بِالْحَمْدَةِ، وَلَعَلَّ النَّاطِمَ فَعَلَ ذَلِكَ
نُطْقاً، ثُمَّ جَرَّدَ مِنْ نَفْسِهِ نَفْساً خَاطِبَهَا فَقَالَ:

الفصل الأول: في الغزل وشكوى الغرام

١- أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمٍ مَزَجَتْ دُمْعاً جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ

٢- أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاطِمَةٍ وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلْمَاءِ مِنْ إِضْمٍ

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ - بكسر الجيم - بِذِي سَلَمٍ، مَزَجَتْ - بفتح التاء - دُمْعاً جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ مِنْكَ. أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ أَي هَاجَتْ مِنْ تِلْقَاءِ كَاطِمَةٍ أَي جِهَتِهَا، وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ أَي لَمَعَ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ مِنْ إِضْمٍ بِكسر الهمزة.

و«بِدَمٍ» تَنَازُعٌ^(١) «مزج»، و«جَرَى»، و«جَرَى»، و«جَرَى» على الأوَّلِ للتَّغْدِيَةِ، وعلى الثاني لِلْمُصَاحَبَةِ، و«المُقَلَّةُ» العَيْنُ، وَفِيهَا الْحَدَقَةُ وَهِيَ السَّوَادُ فِي وَسْطِهَا، وَفِي الْحَدَقَةِ النَّظِيرُ^(٢) وَالْإِنْسَانُ^(٣)، وَهُوَ مَحَلُّ الْبَصَرِ مِنْهَا.

وَفِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ بَرَاعَةُ الاسْتِهْلَالِ، إِذْ فِيهِ مَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ فِي مَذْحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ ذِكْرُ الْجِيرَانِ بِ «ذِي سَلَمٍ»، لِأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمَدِينَةِ.

و «مِنْ» فِي الْمَوْضِعَيْنِ مِنَ الْبَيْتِ الثَّانِي لِلإِبْتِدَاءِ، وَأَرَادَ بِ «الْجِيرَانِ» الْمَحْبُوبَيْنِ،

(١) التَّنَازُعُ لُغَةٌ هُوَ التَّجَانُّبُ، وَفِي الْإِصْطِلَاحِ هُوَ تَقَدُّمُ عَامِلَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ عَلَى مَعْمُولٍ. بِحَيْثُ يَكُونُ كُلُّ مِّنِ الْعَامِلِينَ أَوْ الْعَوَامِلِ الْمُتَقَدِّمَةِ طَالِبًا لِهَذَا الْمَعْمُولِ، أَيْ مَوْثَرًا فِيهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّكْلِيَّةِ وَالْإِعْرَابِيَّةِ، وَفِي هَذَا الْبَيْتِ فَإِنَّ «مَزَجَتْ» وَ«جَرَى» وَ«جَرَى» مُتَنَازِعَانِ عَلَى «بِدَمٍ».

(٢) سَوَادُ الْعَيْنِ الَّذِي فِيهِ إِنْسَانُهَا.

(٣) إِنْسَانُ الْعَيْنِ هُوَ الْفَتْحَةُ الَّتِي يَمُرُّ الضَّوُّ فِيهَا إِلَى دَاخِلِ الْعَيْنِ، وَتَتَسَّعُ وَتَضِيقُ تَبَعًا لَشِدَّةِ الضَّوِّ.

و«ذِي سَلَمٍ» و«كَاطِمَةٍ» و«إِضْمٍ» أَمَكِنْتَهُمْ، وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ،
و«مَزَجَ الدَّمْعَ بِالدَّمِّ» - وَهُوَ خَلَطُهُ بِهِ - شِدَّةَ الْبُكَاءِ، وَاسْتَفْهَمَ عَنْ سَبَبِهَا: أَهْوُ
تَذَكُّرُ الْمَحْبُوبِينَ الْغَائِبِينَ، أَمْ هُبُوبُ الرِّيحِ وَلَمَعَانُ الْبَرْقِ مِنْ جِهَتِهِمْ؟ فَكَأَنَّ
الْمُخَاطَبَ أَنْكَرَ ذَلِكَ مَعَ نَشَاتِهِ عَنِ الْحُبِّ، لِإِنْكَارِهِ الْحُبَّ، فَقَالَ لَهُ مُسْتَفْهِمَا
اسْتَفْهَمَا إِنْكَارِيًّا:

٣- فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ اكْفَفَا، هَمَّتَا وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ، يَهِمَّ

فَمَا، أَيِ إِنْ صَدَقْتَ فِي إِنْكَارِكَ، فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ لَهُمَا: اكْفَفَا عَنِ
الْبُكَاءِ، أَيِ اتْرُكَاهُ، هَمَّتَا أَيِ سَالَ دَمْعُهُمَا، وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ لَهُ: اسْتَفِقْ، أَيِ
أَفِقْ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ، يَهِمُّ أَيِ يَذْهَبُ مِنَ الْعَشَقِ أَوْ غَيْرِهِ، وَكُلُّ مَنْ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ
مِنْ أَثَارِ الْحُبِّ. وَ«مَا» فِي الْمَوْضِعَيْنِ مُبْتَدَأٌ، وَمَا بَعْدَهَا خَبَرٌ. ثُمَّ قَالَ لَهُ مُلْتَفِتًا مِنْ
الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ:

٤- أَيْخَسِبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحُبَّ مُنْكَتِمٌ مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمٍ

أَيْخَسِبُ الصَّبُّ، أَيِ أَيْظُنُّ الْعَاشِقُ مَعَ كَثَرَةِ بُكَائِهِ أَنَّ الْحُبَّ مُنْكَتِمٌ أَيِ
مُسْتَتَرٌّ عَنِ النَّاسِ، مَا زَائِدَةٌ لِإِفَادَةِ التَّقْلِيلِ أَيِ شَيْئًا مِنْ انْكِتَامِ الْحُبِّ، بَيْنَ دَمْعٍ
مُنْسَجِمٍ مِنْهُ أَيِ سَائِلٍ وَقَلْبٍ مُضْطَرِمٍ مِنْهُ، أَيِ مُسْتَعِلٍ.

وَالِاسْتَفْهَامُ لِلتَّعَجُّبِ الْإِنْكَارِيِّ، أَيِ مَا يَنْبَغِي لِلْمُحِبِّ أَنْ يَظُنَّ انْكِتَامَ حُبِّهِ
عَنِ النَّاسِ فِي حَالِ ظُهُورِهِ بِإِنْجَامِ دَمْعِهِ وَاضْطِرَامِ قَلْبِهِ.

وَضَمِيرُ «مَنْهُ» عَائِدٌ إِلَى «الصَّبِّ»، عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، أَيْ مُنْسَجِمٍ مِنْ نَمْعِ الصَّبِّ، وَمُضْطَرِمٍ مِنْهُ. ثُمَّ اخْتَجَّ عَلَى أَنَّهُ مُحِبٌّ، فَقَالَ مُخَاطِبًا لَهُ:

٥- لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرَقِّ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ وَلَا أَرَقْتَ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ

لَوْلَا الْهَوَى أَيْ الْحُبُّ مُوجُودٌ، لَمْ تُرَقِّ -فِيهِ التَّفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخُطَابِ- أَيْ لَمْ تَصَبِّ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ مُنْسَوِّبٍ إِلَى الْمَحْبُوبِ، وَهُوَ ^(١) مَا شَخَّصَ مِنْ آثَارِ الدَّارِ، وَلَا أَرَقْتَ -بِكَسْرِ الرَّاءِ- أَيْ سَهَرْتَ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ الْمُشَبَّهِ بِهِمَا الْمَحْبُوبُ فِي طَوْلِ الْقَامَةِ وَحُسْنِ الْهَيْئَةِ وَطِيبِ الرَّائِحَةِ.

و«الْبَانُ» شَجَرٌ مَعْرُوفٌ ^(٢)، وَاحِذُهُ «بَانَةٌ»، و«الْعَلَمُ» الرُّمْحُ فِي رَأْسِهِ رَايَةً، وَلَاَمْ «لِذِكْرِ» لِلتَّعْلِيلِ.

ثُمَّ تَعَجَّبَ مِنْ إِنْكَارِهِ الْحُبِّ بَعْدَ ظُهُورِهِ، فَقَالَ:

٦- فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَ مَا شَهِدْتَ بِهِ عَلَيْكَ عُذُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ

فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا -بِضَمِّ الْحَاءِ وَكُسْرِهَا- أَيْ مَحَبَّةً، بَعْدَ مَا شَهِدْتَ أَيْ أَخْبَرْتَ بِهِ عَلَيْكَ عُذُولُ ^(٣) الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ النَّاسِئِينَ عَنِ الْحُبِّ.

وَالسَّقَمُ -بِضَمِّ السَّيْنِ وَسُكُونِ الْقَافِ، وَيَفْتَحُهُمَا وَهُوَ مَا فِي النَّظْمِ- طَوْلُ الْمَرَضِ،

(١) أَيْ الطَّلَلُ، وَجَمْعُهُ أَطْلَالٌ وَطُلُولٌ.

(٢) هُوَ شَجَرٌ مَمَشُوقُ الْقَوَامِ، لِينٌ، وَرَقُهُ كَوَرَقِ الصَّفَصَافِ، وَيُشَبَّهِ بِهِ الْحَسَنُ فِي الطَّوْلِ وَاللَّيْنِ.

(٣) جَمْعُ «عَدَلٍ» وَهُوَ الشَّاهِدُ الْمُتَنَصِّفُ الْمُصَدِّقُ.

و «مَا» مضريّة، وإضافة «عُدول» إلى مَا بَعْدَهَا بيانية، واستعمال الجمع في اثنين سائغ. وفي التقييد ببعدية ما ذكر استبعاداً للإنكار، لأنه إنما يحسن قبل الشهادة لا بعدها، وعطف على «شهدت» قوله:

٧- وَأَثَبْتُ الْوَجْدُ خَطِيَّ عِبْرَةً وَضَنَى مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدَيْكَ وَالْعَنَمِ

وَأَثَبْتُ الْوَجْدُ أَيِ الْحَزْنَ بِسَبَبِ الْحُبِّ خَطِيَّ عِبْرَةً -بِفَتْحِ الْعَيْنِ- أَيِ بُكَاءٍ، بَأَنْ سَالَ دَمْعُ الْعَيْنَيْنِ، وَضَنَى -عَطَفَ عَلَى «خَطِيَّ»- وَهُوَ الْمَرَضُ، وَالْمُرَادُ هُنَا أَثَرُهُ، مِثْلَ الْبَهَارِ ^(١) -بِفَتْحِ الْمُوحَدَةِ- وَهُوَ وَرْدٌ أَصْفَرٌ، عَلَى خَدَيْكَ مُتَعَلِّقٌ بِ «أَثَبْتُ»، وَالْعَنَمِ ^(٢) -بِفَتْحِ الْمُهْمَلَةِ وَالنُّونِ- شَجَرٌ لَهُ أَغْصَانٌ حُمْرٌ.

و «مِثْلَ» صِفَةٌ لـ «خَطِيَّ» و «ضَنَى»، وَالْقَصْدُ تَشْبِيهُ الْخَطِيْنِ بِالْعَنَمِ فِي الْحُمْرَةِ لِامْتِزَاجِ الدَّمْعِ بِالدَّمِ، وَتَشْبِيهُ أَثَرِ الضَّنَى بِالْبَهَارِ فِي الصُّفْرِ، فَفِي كَلَامِهِ لَفٌّ وَنَشْرٌ مَعَكُوسٌ ^(٣).

وَلَمَّا انْجَلَى كَوْنُ الْمُخَاطَبِ مُحِبًّا، وَكَانَ هُوَ الْمُتَكَلِّمُ فِي الْمَعْنَى، رَجَعَ عَنِ التَّجَرُّدِ إِلَى التَّكَلُّمِ، وَاعْتَرَفَ بِالْحُبِّ فَقَالَ:

(١) يُطْلَقُ «الْبَهَارُ» عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسَنٍ مَنِيرٍ، وَهُوَ زَهْرٌ طَيِّبٌ الرَّائِحَةُ يَنْبُتُ أَيَّامَ الرَّبِيعِ.

(٢) نَبَاتٌ أَمْلَسُ دَائِمُ الْخُضْرَةِ، أَزْهَارُهُ قَرْمَزِيَّةُ اللَّوْنِ يَتَخَذُ مِنْهَا خَضَابٌ.

(٣) اللَّفُّ وَالنَّشْرُ فِي الْبَلَاغَةِ هُوَ ذِكْرُ الْأَشْيَاءِ الْمُتَعَدَّةِ، ثُمَّ ذِكْرُ مَا يَتَّصِلُ بِهَا عَلَى سَبِيلِ التَّرْتِيبِ، الْأَوَّلُ لِلأَوَّلِ، وَالثَّانِي لِلثَّانِي، وَهَكَذَا... مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ رُحِمَتْهُ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [سُورَةُ الْقَصَصِ-٧٣]، فَقَدْ جُمِعَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَوَّلًا، ثُمَّ ذِكْرُ السَّكُونِ لِلَّيْلِ وَابْتِغَاءُ الرِّزْقِ لِلنَّهَارِ عَلَى التَّرْتِيبِ. وَقَدْ يَأْتِي اللَّفُّ وَالنَّشْرُ مَعَكُوسًا، كَمَا فِي هَذَا الْبَيْتِ، بَأَنْ تَذَكَّرَ الْأَشْيَاءَ ثُمَّ يَذْكُرُ مَا يَتَّصِلُ بِهَا، وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَى التَّرْتِيبِ، وَذَلِكَ لِفَرَضِ بَلَاغِيٍّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سُورَةُ آلِ عَمْرَانَ-١٠٦].

٨- نَعَمْ سَرَى طَيْفٌ مِّنْ أَهْوَى، فَأَرَقْنِي وَالْحُبُّ يَعْترِضُ اللَّذَاتِ بِالْأَلَمِ

نعم سرى إليّ طيف، أي جاعني في الليل خيال من أهوى أي أحبه، فأرقني أي أسهرني في ألم بعد أن كنت في لذة النوم، والحب يعترض اللذات أي يحول دونها بالألم، أي بالوجع من جهة ما ينشأ عنه من عدم الوصل من المحبوب.

و«نعم» تكون لتصديق مخبر بعد خبره، كـ «قام زيد»، وإعلام مستخبر بعد استخباره، كـ «أقام زيد؟»، ولوعد طالب بعد طلبه، كـ «أعطني»، وهي هنا للكل أو للثاني. ثم استشعر لآثماً في الحب فقال:

٩- يا لائمي في الهوى العذريّ معذرةً مني إليك، ولو أنصفت لم تلم

يا لائمي أي عاذلي في الهوى العذريّ -بإزالة معجزة- أي الحب المفرط، المنسوب إلى بني عذرة، قبيلة من العرب يؤدي العشق بهم إلى الموت^(١)، معذرة مني إليك -منسوب مصدرًا، أو نصب المصدر بفعل مقدر، وهو بدل من اللفظ به- أي اعتذر إليك بأني مبتلى بالحب لمن أهواه.

ف «معذرة» بمعنى «عذراً» إن كانت مصدرًا، وإلا فبمعنى ما يعتذر به، كأن يقول المحب للعاذل: إني محب فلا تلمني، إذ المحب لا يلام، سيما الحب العذري، ولو أنصفت أي عدلت، لم تلم في الحب، لعلمك بأنه ليس اختياريًا.

ثم دعا للإثمه استعطافاً ليرقّ له فيقبل عذره، فقال:

(١) قبيلة مشهورة باليمن، اشتهر عنهم صدقهم في الحب ورقة قلوبهم.

١٠- عَدَّتْكَ حَالِي، لَا سِرِّي بِمُسْتَرٍ عَنِ الْوُشَاةِ، وَلَا دَائِي بِمُنْحَسِمٍ

عَدَّتْكَ أَي تَعَدَّتْ إِلَيْكَ حَالِي، أَي هَيَّئْتِي فِي الْحُبِّ بِأَنْ يَبْتَلِيكَ اللَّهُ بِهِ، وَبَيَّنَّهَا بِقَوْلِهِ: لَا سِرِّي وَهُوَ مَا أَكْتَمُهُ، بِمُسْتَرٍ عَنِ الْوُشَاةِ -بِضْمِ الْوَاوِ- جَمْعُ «وَاشٍ»، أَي الْكَذْبَةِ السَّاعِينَ فِي الْفَسَادِ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَهْوَاهُ، وَلَا دَائِي أَي مَرَضِي فِي الْحُبِّ بِمُنْحَسِمٍ، أَي بِمَنْقَطِعِ لِعَدَمِ الْوَصْلِ مِنَ الْمَحْبُوبِ.

وَجُمْلَةُ «عَدَّتْكَ حَالِي» تَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ إِنشَائِيَّةً دُعَائِيَّةً، بِخُلُوقِ حَالِهِ لِلْعَاذِلِ كَمَا قَرَّرْتُهُ، أَوْ بَعْدَمِ خُلُوقِهَا لَهُ وَأَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً، أَي جَاوَزَتْكَ حَالِي فَلَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي، وَلَوْ أَصِيبَتْ بِهَا لَمَا عَذَلْتَنِي وَلَعَذَرْتَنِي. ثُمَّ بَيَّنَّ حَالَهُ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ بِقَوْلِهِ: «لَا سِرِّي...» إِلَى آخِرِهِ، ثُمَّ اعْتَرَفَ لِإِلَافَتِهِ بِالْحُبِّ، فَقَالَ:

١١- مُحَضَّتَنِي النَّصْحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُدَالِ فِي صَمَمٍ

مُحَضَّتَنِي النَّصْحَ وَهُوَ الْإِرْشَادُ إِلَى الْمَصْلَحَةِ، أَيِ اخْلَصْتَهُ بِزَعَمِكَ مِنْ شَوَائِبِ الْأَغْرَاضِ فِي لَوْمِكَ لِي فِي الْهَوَى مِنْ قَبْلِ أَسْبَابِهِ، كَالِاتِّفَاتِ إِلَى مَحْبُوبِهِ، وَالتَّطَلُّعِ إِلَيْهِ، وَالتَّلَوُّعِ بِهِ، وَالتَّفَكُّرِ فِي مُحَاسِنِهِ، لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ، أَيِ سَمَاعَ قَبُولٍ.

وَلَمَّا كَانَ عَدَمُ قَبُولِهِ النَّصْحَ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الْعَقْلِ، أَبْدَى عُدْرَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ إِنَّ الْمُحِبَّ -فِيهِ الْبَغَاتُ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ- عَنِ الْعُدَالِ -بِذَالِ مُعْجَمَةٍ- أَيِ اللُّوَامِ، فِي صَمَمٍ -خَبِرُ «إِنْ»، وَ«عَنْ» مُتَعَلِّقَةٌ^(١) بِ«صَمَمٍ»، وَهِيَ

(١) التَّطَلُّقُ حَكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ حُرُوفِ الْجَرِّ وَالظُّرُوفِ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْإِرْتِبَاطِ الْمَتَمِّ لِلْمَعْنَى، يَنْعَقِدُ بَيْنَ مَا يَشْبَهُ الْجُمْلَةَ مِنْ ظَرْفٍ وَجَارٍ وَمَجْرُورٍ، وَمَا قَبْلَهُمَا مِنْ أَفْعَالٍ أَوْ مَا يَشْبَهُهَا.

لِلْمُجَاوِزَةِ- أَي جَاوَزَ صَمَمُ الْمُحِبِّ الْعُذَّالَ، فَلَا يَقْبَلُ عَذْلَهُمْ، فَأَمْسِكَ أَيُّهَا الْعَاذِلُ
عَنْ نُضْحِكَ.

١٢- إِنِّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذْلِ وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نُضْحٍ عَنِ التُّهَمِ

إِنِّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذْلِ يَفْتَحُ الذَّالِ الْمُعْجَمَةُ اسْمُ مُضْدَرٍ،
وَالْمُضْدَرُ بِسُكُونِهَا- وَمَعْنَاهُ اللَّوْمُ، وَ«نَصِيحٌ» بِمَعْنَى نَاصِحٍ، وَإِضَافَتُهُ لِلْبَيَانِ،
و«فِي عَذْلِ» مُتَعَلِّقٌ بـ «اتَّهَمْتُ».

وَالشَّيْبُ وَهُوَ ابْيَضَاضُ الشَّعْرِ أَبْعَدُ فِي نُضْحٍ عَنِ التُّهَمِ، وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ
أَوْ حَالٌ لَازِمَةٌ مِنْ مَفْعُولِ «اتَّهَمْتُ» فِي الْمَعْنَى، وَهُوَ الشَّيْبُ، وَ«فِي» وَ«عَنْ» مُتَعَلِّقَانِ
بـ «أَبْعَدُ». وَعَلَّلَ اتِّهَامَهُ لَهُ بِقَوْلِهِ:

الفصل الثاني: في التحذير من هوى النفس

١٣- فَإِنَّ أَمَارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظْتُ مِنْ جَهْلِهَا، بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ

فَإِنَّ أَمَارَتِي أَي كَثِيرَةَ الْأَمْرِ، وَهِيَ نَفْسِي^(١)، بِالسُّوءِ أَي بِكُلِّ قَبِيحٍ، مَا اتَّعَظْتُ مِنْ أَجْلِ جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ أَي بِبَيَاضِ الشَّعْرِ، وَكِبَرِ السِّنِّ، وَضَعْفِ الْقُوَى، وَكُلٍّ مِنَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ مُنْذِرٌ، أَي مُخَوِّفٌ بِقُرْبِ الْمَوْتِ، الْمَقُوتِ لِلتَّوْبَةِ وَسَائِرِ الطَّاعَاتِ. وَإِضَافَةُ «نَذِيرٍ» لِلْبَيَانِ، وَهِيَ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ.

وَعَطَفَ عَلَى «مَا اتَّعَظْتُ» قَوْلَهُ:

١٤- وَلَا أَعَدَّتْ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قِرَى ضَيْفٍ، أَلَمْ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمٍ

وَلَا أَعَدَّتْ أَي هَيَّأَتْ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ أَي الْحَسَنِ، قِرَى ضَيْفٍ أَي إِحْسَاناً إِلَيْهِ، أَلَمْ أَي نَزَلَ الضَّيْفُ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمٍ لِي، أَي غَيْرَ مُسْتَحْيِيٍّ مِنِّي فِي نَزُولِهِ بِرَأْسِي، وَهُوَ الشَّيْبُ.

(١) يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَاجُورِيُّ فِي شَرْحِهِ لِهَذَا الْبَيْتِ: وَ«الْأَمَارَةُ» مِنْ أَنْوَاعِ النَّفْسِ، وَهِيَ الَّتِي تَأْمُرُ بِالْمَخَالَفَةِ، فَلَا يُلَوِّحُ لَهَا طَمَعٌ إِلَّا فَعَلَتْهُ، وَلَا يَبْزُرُ لَهَا شَهْوَةٌ إِلَّا قَضَتْهَا، فَلَمْ تَسْلُكْ سَبِيلَ الرِّشَادِ، وَلَمْ تَسْتَضِئْ بِنُورِ السَّدَادِ، وَقَدْ ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [سُورَةُ يُسُف - مِنْ الْآيَةِ ٥٣]، وَمِنْهَا «الْوَامَةُ»، وَهِيَ الَّتِي تَرْجِعُ بِاللُّومِ عَلَى صَاحِبِهَا كَثِيرًا عِنْدَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعْصِيَةِ لِسَابِقَةِ الْقَضَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ الْوَامَةِ﴾ [سُورَةُ الْقِيَامَةِ - الْآيَةُ ٢]، وَمِنْهَا «الْمُطْمَنِّئَةُ» وَهِيَ الَّتِي أَطْمَأْنَنْتَ لِلْإِيمَانِ وَلِلتَّصَدِيقِ بِوَعْدِ اللَّهِ، فَهِيَ دَائِمًا مُوَفِّقَةٌ لِلطَّاعَةِ، مُصَدِّقَةٌ بِلِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَنِّئَةُ﴾ [سُورَةُ الْفَجْرِ - الْآيَةُ ٢٧].

وَعَدَمُ احْتِشَامِ الضَّيْفِ فِي نَزُولِهِ دَلِيلٌ عَلَى كَرَمِهِ فِي عَادَةِ الْعَرَبِ، وَقَرَى هَذَا الضَّيْفِ، وَهُوَ الشَّيْبُ، الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ مِنَ التَّوْبَةِ وَغَيْرِهَا، وَلَمْ أَوْقُرْهُ بِإِتْيَانِي بِهَا^(١).

و«مِنْ» لِلتَّبَعِيضِ، وَالْبَاءُ لِلطَّرْفِيَةِ، وَ«غَيْرُ» حَالٌ مِنْ فَاعِلِ «الَمْ»، أَوْ صِفَةٌ لِـ «ضَيْفٍ».

١٥- لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أَوْقُرُهُ كَتَمْتُ سِرًّا بَدَأَ لِي مِنْهُ بِالْكَتَمِ

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ قَبْلَ نَزُولِهِ بِي، أَنِّي مَا أَوْقُرُهُ أَيَّ أَعْظَمُهُ بَعْدَ نَزُولِهِ بِي، كَتَمْتُ أَيَّ أَخْفَيْتُ سِرًّا، يَعْنِي شَيْبًا، بَدَأَ أَيَّ ظَهَرَ لِي مِنْهُ بِالْكَتَمِ^(٢) -بِفَتْحِ الْكَافِ وَالنَّاءِ- نَبْتُ يُخْتَضَبُ بِهِ كَالْحِنَاءِ، أَيَّ خَضَبْتُهُ حِينَ نَزُولِهِ بِي، حَتَّى لَا أَنْسَبُ إِلَى عَدَمِ تَوْقِيرِهِ، النَّاشِئُ مِنْ نَفْسِي الْأَمَارَةِ بِالسُّوءِ.

وَعَبَّرَ عَنِ الشَّيْبِ بِالسَّرِّ لِأَنَّهُ قَبْلَ ظُهُورِهِ خَفِيٌّ، وَفِي الْبَيْتِ تَنْبِيهُ عَلَى طَلَبِ تَوْقِيرِ الشَّيْبِ.

ثُمَّ اسْتَفْهَمَ عَمَّنْ يَتَكَفَّلُ لَهُ بِرَدِّ جِمَاحِ أَمَارَتِهِ، فَقَالَ:

(١) يقول الإمام الباجوري: لما كان الشيب نذيراً بانقضاء العمر، صار بلسان حاله طالباً للأعمال الصالحة، التي زاد الآخرة، كما يطلب الضيف قراه تصريحاً أو تلويحاً وإنما كان غير محتشم لأن من آداب الضيف أن لا يكثر الإقامة عند من أضافه، فمن أكثرها عنده كان غير محتشم، والشيب إذا نزل لا يرحل إلا بالموت فهو غير محتشم، فعلى العاقل أن يستعد بالأعمال الصالحة لضيافته.

(٢) شجر ينبت في المناطق الجبلية من البلاد الحارة المعتدلة، ثمرته تشبه الفلفل، وكان يستعمل قديماً في الخضاب، وصنع المداد.

١٦- مَنْ لِي بَرْدٌ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا - كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللُّجَمِ

مَنْ لِي بَرْدٌ أَي صَرَفَ جِمَاح - بَكَسَرَ الْجِيمِ - أَي غَلَبَهُ لَهَا، مِنْ غَوَايَتِهَا - بَفَتَحَ الْغَيْنِ - أَي ضَلَّالِهَا، كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ أَي غَلَبَتْهَا لِارَاكِيبِهَا، بِاللُّجَمِ جَمْعُ «لِجَامٍ». وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ تَصْرُّعٌ وَاسْتِعْطَافٌ، أَي مَنْ يَتَكَفَّلُ لِي بِرَدِّهَا، تَفْضُلًا مِنْهُ بِمَوَاعِظِهِ السَّنِيَّةِ وَأَسْرَارِهِ الْعَلِيَّةِ^(١)، وَ«مَا» مُضْدريةٌ.

ثُمَّ اسْتَشْعَرَ مَا يُقَالُ إِنَّهَا تُرَدُّ بِشَبْعِهَا مِنْ مُشْتَهَاتِهَا، وَلَا يُحْتَاجُ إِلَى رَدِّهَا، فَدَفَعَهُ بِقَوْلِهِ:

١٧- فَلَا تَرْمِ بِالْمَعَاصِي كَسَرَ شَهْوَتِهَا - إِنَّ الطَّعَامَ يَقْوِي شَهْوَةَ النَّهْمِ

فَلَا تَرْمِ أَي تَطْلُبِ بِالْمَعَاصِي الْمُشْتَهَاةِ لَهَا، كَسَرَ أَي صَرَفَ شَهْوَتِهَا إِلَيْهَا. ثُمَّ اسْتَدَلَّ عَلَى أَنَّ تَمَادِيهَا يَقْتَضِي تَمْكِينَهَا فِي الْمَعَاصِي بِقَوْلِهِ إِنَّ الطَّعَامَ وَهُوَ مَا يُؤْكَلُ، يَقْوِي شَهْوَةَ النَّهْمِ - بَفَتَحَ النُّونَ وَكَسَرَ الْهَاءَ - أَي الشَّدِيدِ الشَّهْوَةِ إِلَى الطَّعَامِ، بِحَيْثُ لَا يَمَلُّهُ بِكَثْرَةِ الْمَرَّاتِ لِإِلْفِهِ لَهُ، كَذَلِكَ إِلْفُ النَّفْسِ لِلْمَعَاصِي يَقْوِي شَهْوَتَهَا إِلَيْهَا، وَالشَّهْوَةُ مِيلُ النَّفْسِ إِلَى شَيْءٍ.

ثُمَّ شَبَّهَ النَّفْسَ فِي اسْتِمْرَارِهَا عَلَى مَالُوفَاتِهَا بِالطِّفْلِ، فَقَالَ:

(١) يقول الباجوري: وفي هذا البيت إشارة إلى أن السلوك لا يتم إلا بشيخ عارف، لأن النفس ربما تستحسن أمراً، فيكون الهلاك فيه، فالشيخ العارف كالطبيب الماهر.

١٨- وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تَهَمِلَهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرِّضَاعِ، وَإِنْ تَقْطِمَهُ يَنْفَطِمِ

وَالنَّفْسُ أَيْ الرُّوحُ^(١)، كَالطِّفْلِ إِنْ تَهَمِلَهُ أَيْ تَتْرَكُهُ، شَبَّ أَيْ نَشِطَ وَقَوِيَ عَلَى حُبِّ الرِّضَاعِ لِإِلْفِهِ لَهُ، وَإِنْ تَقْطِمَهُ أَيْ تَقْصِلُهُ عَنِ الرِّضَاعِ، يَنْفَطِمِ.

وَالنَّفْسُ إِنَّمَا تَنْفَطِمُ عَنْ مَأْلُوفَاتِهَا مِنَ الْمَعَاصِي بِرَادِعٍ قَوِيٍّ أَوْ لَطْفٍ إِلَهِيٍّ.

١٩- فَاضْرِفْ هَوَاهَا، وَحَازِرْ أَنْ تُؤَلِّيَهُ إِنَّ الْهَوَى مَا تُؤَلِّي^(٢)، يُضْمِ أَوْ يَضْمِ

فَاضْرِفْ أَيْ رُدِّ هَوَاهَا بِمَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَحَازِرْ أَيْ اخْذَرْ أَنْ تُؤَلِّيَهُ، مِنَ الْوَلَايَةِ، أَيْ تُوَمِّرَهُ عَلَى أَمْرٍ.

إِنَّ الْهَوَى^(٣) مَا تُؤَلِّي -بَيْنَانِهِ لِلْمَفْعُولِ- يُضْمِ -يَضْمُ الْيَاءِ- أَيْ يَقْتُلُ، أَوْ يَضْمِ -بِفَتْحِهَا- أَيْ يَعِيبُ. وَ«مَا» شَرْطِيَّةٌ، وَهِيَ وَمَا بَعْدَهَا خَبَرٌ «إِنَّ»، وَ«أَوْ» لِلتَّقْسِيمِ، نَحْوُ: «كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى»^(٤).

(١) يقول الإمام الباجوري في شرحه: واعلم أن النفس لطيفة ربابية، وهي الروح قبل تعلقها بالأجساد، وقد خلق الله الأرواح قبل الأجساد بالفي عام، فكانت حينئذ في جوار الحق وقربه، فتستفيض من حضرته بلا واسطة، فلما أمرها الحق أن تتعلق بالأجساد عرفت الغير فحببت عن حضرة الحق، بسبب بعدها عنه تعالى، فلذلك احتاجت إلى مذكر، قال تعالى ﴿وَنُذَكِّرُ إِنْ لَمْ تُكْرَى تَتَفَعَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الذاريات - الآية ٥٥] فهي قبل تعلقها بالجسد تسمى روحاً، وبعد تعلقها به تسمى نفساً، فالاختلاف بينهما اعتباري.

(٢) وفي رواية: «ما تؤلّي»، على أنه مبني للفاعل، بمعنى صار واليا، وكل صحيح.

(٣) قال الإمام الباجوري في شرحه لهذا البيت: ولما كان الهوى سبباً للهلاك أجمع على ذمه العارفون، ووردت بذمه الآيات والأحاديث، لأنه ينتج من الأخلاق قبايحها، ويظهر من الأفعال فضائنها، ويجعل ستر المروءة مهتوكاً، ومدخل الشر مسلوكة. وقال ابن عباس: «الهوى إله يُعبد من دون الله»، وتلا قوله تعالى ﴿فَأَرَأَيْتَ مَنْ أَتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [سورة الجاثية - من الآية ٢٣]. وقال الشعبي: «إنما سمي هوى لأنه يهوي بصاحبه إلى النار».

(٤) سورة البقرة - من الآية ١٣٥

٢٠- وَرَاعِهَا وَهِيَ فِي الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ وَإِنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ الْمَرْعَى فَلَا تُسَمِّ

وراعِها أي لاحظها، وهي -أي والحالة أنها- في الأعمال الصالحة سائمة، أي سارحة تنتقل من عمل إلى آخر. وإن هي استحلت المرعى الذي ترعى فيه من الأعمال المندوبة أي وجدته حلوًا، فلا تسيم -بضم أوله- أي فلا تبقها في ذلك، بل أقطعها عنه، خوف العجب والرياء المهلكين، واستعملها فيما لا تستحليه من أعمال آخر مطلوبة.

و«سَمِّ» أضلّه «سَمِّم» خُفَّتِ الْيَاءُ لِسُكُونِ الْمِيمِ، وَإِنَّمَا لَمْ تَعُدْ بَعْدَ تَخْرِيكِ الْمِيمِ لِأَنَّ حَرَكَتَهَا عَارِضَةٌ لِلْقَافِيَةِ.

ثُمَّ اسْتَشْهَدَ عَلَى حَالِ مَا أَمَرَ بِرِعَايَتِهِ، فَقَالَ:

٢١- كَمْ حَسَنْتَ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَذِرْ أَنَّ السَّمَّ فِي الدَّسَمِ

كَمْ خَبَرْتُ بِمَعْنَى كَثِيرًا، حَسَنْتُ أَي زَيَّنْتُ، لَذَّةً لِلْمَرْءِ -يَفْتَحُ الْمِيمِ وَضَمَّهَا- أَي الرَّجُلِ، قَاتِلَةً لَهُ، فِي مَطْعُومٍ أَوْ غَيْرِهِ، مِنْ حَيْثُ لَمْ يَذِرْ أَنَّ السَّمَّ -بضم السين- كَائِنٌ فِي الدَّسَمِ أَي الْوَدَكِ^(١)، فِيهِلِكَ يَبْلُوكَ اللَّذَائِذُ بِالتَّدْرِيجِ^(٢).
و«لَذَّةً» تَمَيِّزُ لـ «كَمْ»، و«قَاتِلَةً» نَعَتْ لـ «لَذَّةً»، و«لِلْمَرْءِ» تَنَارَعُهُ «حَسَنْتُ»، و«لَذَّةً»، و«قَاتِلَةً».

(١) الْوَدَكُ هُوَ الدَّسَمُ، أَوْ دَسَمَ اللَّحْمَ وَذَهَنَهُ الَّذِي يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ، يُقَالُ «لَحَمٌ وَدَكٌ» أَي بِهِ وَدَكٌ.

(٢) يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَاجُورِيُّ: وَخَصَّ السَّمَّ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ قَاتِلٌ، وَخَصَّ الدَّسَمَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ يَعْطُو الْأَشْيَاءَ فَيَسْتَرِ مَا تَحْتَهُ، وَالْمُرَادُ بِالسَّمِّ هُنَا حَظُّ النَّفْسِ، وَالْمُرَادُ بِالدَّسَمِ هُنَا الطَّاعَةُ... وَالْحَاصِلُ أَنَّ النَّفْسَ لَهَا حَظٌّ فِي الطَّاعَةِ كَمَا أَنَّ لَهَا حَظًّا فِي الْمَعْصِيَةِ، بَلْ حَظُّهَا فِي الطَّاعَةِ أَشَدُّ، لِأَنَّ حَظُّهَا فِي الْمَعْصِيَةِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ، وَحَظُّهَا فِي الطَّاعَةِ بَاطِنٌ خَفِيٌّ.

٢٢- واخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخْمِ

واخْشَ أي خَفَ الدَّسَائِسَ الحاصِلَةَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ، بَأَنَّ لَا تُبَالِغَ فِيهِمَا، وَلَا تَسْتَبْعِدِ الدَّسَائِسَ مِنَ الْجُوعِ، فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ أَيْ مَجَاعَةٍ، شَرٌّ مِنَ التُّخْمِ أَيْ الحاصِلَةِ مِنَ الشَّبَعِ.

و«الدَّسَائِسُ» جَمْعُ «دَسِيسَةٍ» وهي الكَيْدُ والمَكْرُ الخَفِيُّ، ودَسَائِسُ الجُوعِ الحِدَّةُ وسوءُ الخُلُقِ ونحوهُمَا، ودَسَائِسُ الشَّبَعِ الكَسَلُ وغَلَبَةُ الشَّهْوَةِ وإِظْلَامُ القَلْبِ ونحوهَا، وَكُلٌّ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ مُشَوِّشٌ لِلْعِبَادَةِ، وَقَدْ تَخَصَّلَ الْعِبَادَةُ مَعَ الشَّبَعِ دُونَ الْجُوعِ، فَيَكُونُ الْجُوعُ شَرًّا مِنَ الشَّبَعِ.

و«رُبَّ» هُنَا حَرْفُ تَقْلِيلٍ، وَ«التُّخْمُ» جَمْعُ «تُخْمَةٍ»، وهي فسادُ الطَّعَامِ فِي المَعِدَةِ، المؤدِّي فسادَهُ إِلَى فسادِهَا، لِإِدْخَالِ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ قَبْلَ انْهِضَامِهِ.

٢٣- واستَفْرِغِ الدَّمَعَ مِنْ عَيْنٍ قَدْ اِمْتَلَأَتْ مِنَ المَحَارِمِ، وَالزَّمَ حِمِيَةَ النَّدَمِ

واستَفْرِغِ الدَّمَعَ أي أَفْرِغْهُ، أَوْ اطْلُبْ فَرَاغَهُ بِالبُكَاءِ، مِنْ عَيْنٍ قَدْ اِمْتَلَأَتْ مِنَ المَحَارِمِ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا، وهي جَمْعُ «مَحْرَمٍ» بِمَعْنَى حَرَامٍ، وَ«مِنْ» الْأَوَّلَى لِلإِبْتِدَاءِ، وَالثَّانِيَةُ لِلتَّبَعِيضِ أَوْ لِلتَّعْلِيلِ، أي اِمْتَلَأَتْ العَيْنُ مِنَ الْإِثَامِ مِنْ أَجْلِ المَحَارِمِ. وَالزَّمَ حِمِيَةَ النَّدَمِ بِمَعْنَى بِهِ التَّوْبَةُ^(١)، أي الزَّمَ التَّوْبَةَ الَّتِي تَحْمِيكَ عَنْ عِقَابِ المَحَارِمِ.

(١) رَوَى الإمامُ أَحْمَدُ فِي مَسْنَدِهِ، وَابْنُ مَاجَةٍ فِي سُنَنِهِ، بِسَنَدَيْهِمَا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (النَّدَمُ تَوْبَةٌ).

٢٤- وَخَالَفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِيهِمَا وَإِنْ هُمَا مَحْضَاكَ النَّصْحَ فَاتَّهِم

وخالِف النفس الأمارَةَ بالسُّوءَ والشَّيْطَانَ، وَاَعْصِيهِمَا فِيمَا يَأْمُرَانِ بِهِ وَيَنْهِيَانِ عَنْهُ، وَإِنْ هُمَا مَحْضَاكَ النَّصْحَ أَيِ اخْلَصَاةً، كَانَ تَقُولَ لَكَ النَّفْسُ «مَتَّعْنِي بِشَهْوَةٍ كَذَا لِأَتَمَلَّى بِهَا، ثُمَّ أَتَوَجَّهْ إِلَى الطَّاعَةِ بِنَشَاطٍ»، فَاتَّهِم أَيِ فَاتَّهِمُهَا فِي ذَلِكَ، لِحَوَازِ أَنْ يَكُونَ دَسِيسَةً لَشَرٍّ بَعْدَهُ.

وَنَبَّهَ بِقَوْلِهِ «وَاعْصِيهِمَا» عَلَى أَنَّهُ لَا يَكْتَفِي بِمُخَالَفَتِهِ لهُمَا، لِأَنَّهُ قَدْ يُخَالَفُهُمَا إِلَى مَا يَرْضِيَانِ بِهِ، فَاعْتَبَرَ فِي الْمُخَالَفَةِ عِصْيَانَهُ لهُمَا. وَأَكَّدَ قَوْلَهُ «وَخَالَفَ...» إِلَى آخِرِهِ بِقَوْلِهِ:

٢٥- وَلَا تُطِغْ مِنْهُمَا خَضَمًا وَلَا حَكَمًا فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَضَمِ وَالْحَكَمِ

وَلَا تُطِغْ مِنْهُمَا خَضَمًا وَلَا حَكَمًا أَيِ حَاكِمًا، وَأَرَادَ بِالْخَضَمِ النَّفْسَ، وَبِالْحَكَمِ الشَّيْطَانَ، أَوْ الْعَكْسَ، فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَضَمِ وَالْحَكَمِ مِنَ النَّاسِ، أَيِ مَكْرُهُمَا لِيُوقِعَاكَ فِيمَا يَضُرُّكَ، وَكَيْدُ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ فِي ذَلِكَ أَعْظَمُ.

وَقَوْلُهُ «مِنْهُمَا» حَالٌ مِمَّا بَعْدَهُ، وَ«مِنْ» لِلتَّبَعِيضِ، وَ«لَا» الثَّانِيَةُ زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ النَّهْيِ. وَلَمَّا أَمَرَ بِصَرْفِ الْهَوَى وَبِغَيْرِهِ مِمَّا مَرَّ، وَنَهَى عَنْ ضِدِّ ذَلِكَ، خَافَ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ مِمَّنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِضِدِّ ذَلِكَ، قَالَ:

٢٦- اَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَوْلٍ بِلاَ عَمَلٍ لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِذِي عَقْمٍ

اَسْتَغْفِرُ اللهَ أَيِ اطْلُبْ مِنْهُ الْغُفْرَانَ، أَيِ سَتِرْ عُيُوبِي، مِنْ قَوْلٍ بِلاَ عَمَلٍ بِهِ، لِأَنِّي أَمَرْتُ بِمَا لَمْ أَفْعَلْهُ، وَارْتَكَبْتُ مَا نَهَيْتُ عَنْهُ، وَحَيْثُ اتَّصَفْتُ بِذَلِكَ، أَعْنِي بِالْقَوْلِ الْخَالِي عَنِ الْعَمَلِ بِهِ، لَقَدْ نَسَبْتُ أَيِ أَضَفْتُ بِهِ، نَسْلاً أَيِ وَلَداً لِذِي عَقْمٍ بِضَمِّ الْقَافِ مَعَ ضَمِّ الْعَيْنِ، لَعَنَهُ فِي سُكُونِهَا مَعَ ضَمِّ الْعَيْنِ وَفَتْحِهَا- فَإِنَّ الْقَوْلَ كَالنَّسْلِ لِقَائِلِهِ لِمُصَدِّرِهِ عَنْهُ، فَإِنَّ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ، لَا يَعْمَلُ سَامِعُهُ بِهِ غَالِباً، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْهُ، فَنَسَبْتُهُ إِلَيْهِ كِنَسْبَةِ نَسْلِ لِذِي عَقْمٍ، وَهُوَ كَذِبٌ يَسْتَغْفَرُ مِنْهُ.

و«عَقْمٌ» فِي الْبَيْتِ مُضَرَّرٌ، لَا جَمْعَ «عَقِيمٌ» وَهُوَ مِنْ لَا يِلْدُ، لِأَنَّ «ذِي» إِنَّمَا تُضَافُ لِمُضَرَّرٍ أَوْ اسْمِ جِنْسٍ، وَ«مِنْ» لِلتَّعْدِيَةِ أَوْ لِلتَّحْلِيلِ، وَيَاءُ «يَلَا» لِلْمُصَاحَبَةِ، وَيَاءُ «بِهِ» لِلتَّعْدِيَةِ، وَهِيَ وَلَاؤُا «لِذِي» مُتَعَلِّقَانِ بِ «نَسَبْتُ».

٢٧- أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ، لَكِنْ مَا انْتَمَرْتُ بِهِ وَمَا اسْتَقَمْتُ، فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ أَيِ بِهِ، لَكِنْ مَا انْتَمَرْتُ أَنَا بِهِ، أَيِ مَا امْتَنَلْتُ أَمْرِي بِهِ، وَمَا اسْتَقَمْتُ أَنَا، أَيِ مَا اعْتَدَلْتُ^(١)، فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ أَيِ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ غَالِباً إِلَّا إِذَا اسْتَقَمْتُ أَنَا.

و«أَمَرَ» يَتَعَدَّى لِاثْنَيْنِ، تَانِيَهُمَا بِالْيَاءِ وَقَدْ تُخَذَفُ، وَالِاسْتِعْمَالَانِ فِي الْبَيْتِ كَمَا تَقَرَّرَ، وَ«مَا» الْأَخِيرَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ، وَلَاؤُا «لَكَ» لِلْبَيَانِ، كَمَا فِي «سَقِيََا لَكَ».

(١) حاشاه الإمام البوصيري من ذلك، فقد كان من أكابر العباد، غير أنه يقول ما يقول من باب التواضع وهضم النفس.

٢٨- وَلَا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً وَلَمْ أَصِلْ سِوَى فَرَضٍ، وَلَمْ أَصُمْ

وَلَا تَزَوَّدْتُ^(١) أَيِ عَمِلْتُ، قَبْلَ الْمَوْتِ الْمُفَوِّتِ لِلطَّاعَاتِ نَافِلَةً أَيِ تَطَوُّعاً،
وَأَكَّدَ مَفْهُومَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: وَلَمْ أَصِلْ سِوَى فَرَضٍ - بِكَسْرِ السَّيْنِ وَضَمِّهَا - وَلَمْ أَصُمْ
أَيِ سِوَى فَرَضٍ^(٢).

وَخَصَّ الصَّلَاةَ وَالصَّوْمَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمَا مَخْصُصَانِ عِبَادَةً بَدَنِيَّةً، وَسَكَتَ عَنِ
الْإِيمَانِ لِمُقَارِنَتِهِ وَجُودَ مَنْ وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ، وَلِأَنَّهُ لَا يُتَنَفَّلُ بِهِ عَادَةً.

(١) مأخوذ من قوله تعالى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [سورة البقرة - من الآية ١٩٧].
(٢) يبعد على مثله الاختصارُ على الفرائض، لكنه لورعه وفنائه يَتَّهَمُ نفسه بعدم الإخلاص في
العبادة، فينزّلها منزلة العدم تواضعاً لله تعالى وانكساراً.

الفصل الثالث: في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم

٢٩- ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَى أَنْ اشْتَكْتَ قَدَمَاهُ الضَّرَّ مِنَ وَرَمٍ

ظَلَمْتُ بِتَرْكِي النَّاغِلَةَ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ أَيِ اللَّيْلِ، بِقِيَامِهِ فِيهِ مُصَلِّياً،
إِلَى أَنْ اشْتَكْتَ، أَيِ انْتَفَخْتَ، قَدَمَاهُ الضَّرَّ بِضَمِّ الضَّادِ - أَيِ سُوءِ حَالِهِمَا مِنْ
أَجْلِ وَرَمٍ حَلَّ بِهِمَا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

و«إلى» غَايَةُ إِحْيَاءِ اللَّيْلِ، وَهِيَ بَيَانٌ لِلْوَاقِعِ فَلَا مَفْهُومَ لَهَا، وَعُطِفَ عَلَى
«أَحْيَا» قَوْلُهُ:

٣٠- وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ وَطَوَى تَحْتَ الْحِجَارَةِ كَشْحاً مُتَرَفَ الْأَدَمِ

وَشَدَّ أَيِ عَصَبٍ، مِنْ أَجْلِ سَغَبٍ أَيِ جَوْعٍ، أَحْشَاءَهُ أَيِ اضْطِرَاعِهِ، وَطَوَى
أَيِ وَثَى مِنْ جِلْدٍ بَطْنِيهِ تَحْتَ الْحِجَارَةِ الَّتِي وَضَعَهَا عَلَيْهِ، كَشْحاً وَهُوَ مَا بَيْنَ
الْخَاصِرَةِ وَأَقْصَرِ اضْطِرَاعِ الْجَنْبِ، مُتَرَفَ الْأَدَمِ - يَفْتَحُ الرَّاءُ نَعْتٌ لـ «كَشْحاً»،
وَالِإِضَافَةُ لَفْظِيَّةٌ - أَيِ نَاعِمِ الْجِلْدِ فِي غَايَةِ.

(١) رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ تَقْسِيرِ الْقُرْآنِ، سُورَةُ الْفَتْحِ، بِسَنَدِهِ عَنِ الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تَوَرَمَتْ قَدَمَاهُ، فَقِيلَ لَهُ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقْدَمُ مِنْ
ذَنْبِكَ وَمَا تَأْخُرُ، قَالَ: (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا).

وَشَدَّهُ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ وَقَعَ لَهُ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ^(١)، وَحَكَمَتْهُ
أَنَّهُ يُخْفَى بِبَرْدِ الْحَجَرِ حَرَارَةَ الْبَاطِنِ.

ثُمَّ دَفَعَ مَا قَدْ يُتَوَهَّمُ مِمَّا ذُكِرَ أَنَّ جُوعَهُ مِنْ فَاقَةٍ وَفَقْرٍ، لَا مِنْ زُهْدٍ فِي
الدُّنْيَا، بِقَوْلِهِ:

٣١- وَرَاوَدَتْهُ الْجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ عَنْ نَفْسِهِ، فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمٍ

وَرَاوَدَتْهُ الْجِبَالُ الشُّمُّ، جَمَعَ «أَشْمَ» أَيِ الْعَوَالِي، حَالَةً كَوْنِهَا مِنْ ذَهَبٍ،
عَنْ نَفْسِهِ، أَيِ طَلَبَتْ مِنْهُ بِاخْتِيَالٍ أَنْ يَأْخُذَهَا، فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمٍ^(٢)، بِزِيَادَةِ «مَا»
لِلتَّأَكِيدِ، أَيِ أَعْرَضَ عَنْهَا وَارْتَفَعَ عَلَيْهَا غَايَةَ الارتفاعِ.

و «عن» لِلْمُجَاوِزَةِ، أَيِ رَاوَدَتْهُ أَنْ يُجَاوِزَ اخْتِيَالَهَا لَهُ نَفْسَهُ، وَ «أَيَّ» مَفْعُولٌ ثَانٍ لـ
«أَرَى» قَائِمٌ مَقَامَ مَوْصُوفٍ مَخْذُوفٍ، أَيِ «شَمَمًا أَيِ شَمَمٍ».

(١) يرواه البخاري في صحيحه كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاءوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام ويطنه معسوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا ندوق ذواقا، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول فضرب، فعاد كثيبا [أي رملا] أهيل أو أهيم، فقلت يا رسول الله انذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي رأيت بالنبي صلى الله عليه وسلم شيئا ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء، قالت عندي شعير وعناق [الأنتى من أولاد المعز ما لم يتم له سنة]، فذبحت العناق وطحننت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة [قدر من الفخار]، ثم جئت النبي صلى الله عليه وسلم والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تتضج، فقلت طعيم لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو فذكرت له، قال: كثير طيب، قال: قل لها لا تتزعج البرمة ولا الخبز من التتور [الفرن] حتى آتي، فقال: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سالك؟ قلت: نعم، فقال: ادخلوا ولا تضاعطوا، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتتور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة.

(٢) الشَّمَم: الارتفاع، يقال «شم الرجل» أي ترفع وتكبر، فهو أشْم، وهي شماء، والجمع شَمَم.

وهذا مأخوذ من خبر أن جبريل قال له: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَكَ: أَتُحِبُّ أَنْ أَجْعَلَ
هذه الجبال ذهباً وتكون معك حيث ما كنت، فأطرق ساعة ثم قال: يا جبريل!
إِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ مِّنْ لَا دَارَ لَهُ، وَمَالٌ مِّنْ لَا مَالَ لَهُ، قَدْ يَجْمَعُهَا مَن لَّا عَقْلَ لَهُ،
فَقَالَ لَهُ جَبْرِيلُ: ثُبَّتَكَ اللَّهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ يَا مُحَمَّدٌ^(١).

٣٢- وَأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فِيهَا ضَرُورَتُهُ إِنَّ الضَّرُورَةَ لَا تَعْدُو عَلَى الْعِصْمِ

وَأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فِيهَا أَي فِي الْجِبَالِ مِّنْ ذَهَبٍ، ضَرُورَتُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا^(٢).
إِنَّ الضَّرُورَةَ لَا تَعْدُو عَلَى الْعِصْمِ أَي لَا تَعْتَدِي عَلَيْهَا وَلَا تَغْلِبُهَا.

و«الْعِصْمُ» جمع «عِصْمَةٍ» وهي قُوَّةٌ مِنَ اللَّهِ فِي عِبْدِهِ تَمْنَعُهُ مِّنْ ارْتِكَابِ
شَيْءٍ مِّنَ الْمَعَاصِي وَالْمَكْرُوهَاتِ^(٣). و«زُهْدُهُ» مفعول «أَكَّدَتْ»، و«ضَرُورَتُهُ»
فَاعِلُهُ، و«فِيهَا» مُتَعَلِّقٌ بِ«زُهْدِهِ».

ثُمَّ اسْتَدَلَّ عَلَى الْحُكْمِ الَّذِي نَفَاهُ، فَقَالَ:

٣٣- وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضَرُورَتُهُ مَن لَّوْلَاهُ لَمْ تُخْرِجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ

وَكَيْفَ لِلْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِي، أَي لَا تَدْعُو أَي تَمِيلُ، إِلَى حُبِّ الدُّنْيَا أَصَالَةً،

(١) جاء في مسند الإمام أحمد بسنده عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له.

(٢) ولا شك أن الضرورة، وهي شدة الحاجة، تؤكد الزهد في الشيء، لأن الإعراض عن الشيء وقلة الرغبة فيه، مع شدة الاحتياج إليه دليل جلي وبرهان قطعي على الزهد في ذلك الشيء.

(٣) حتى لا يفعل من المباحات ما لا يليق بمقامه العالي وقدره الرفيع.

ضُرُورُهُ مِنْ لَوْلَاهُ مَوْجُودٌ، لَمْ تُخْرِجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ^(١)، بَيْنَاءِ «تُخْرِجُ» لِلْمَفْعُولِ أَوْ لِلْفَاعِلِ.

وَخَرَجَ بِقَوْلِي «أَصَالَةً» دُعَاءُ ضَرُورَةٍ إِلَى الدُّنْيَا عَرْضًا، كَالْحَاجَةِ إِلَى قَدْرِ الْقَوْتِ وَسِتْرِ الْعَوْرَةِ، أَخَذًا مِنْ نَحْوِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ، أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبَى بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قَالَا: «الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ»، قَالَ: «وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قَوْمًا»، فَقَامَا مَعَهُ فَأَتَوْا رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَهُوَ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ الْتِيهَانِ، فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ^(٢) وَتَمَرٌ وَرَطَبٌ فَقَالَ: «كُلُوا» وَأَخَذَ الْمُدِيَّةَ^(٣)، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ^(٤)»، فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ، فَشَرِبُوا حَتَّى شَبِعُوا وَرَوُوا^(٥).

(١) قَالَ الْإِمَامُ الْبَاجُورِيُّ فِي ذَلِكَ: وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَابَيْهَقِيُّ، مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى لَأَدَمَ لَمَّا سَأَلَهُ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ مَا اقْتَرَفَهُ مِنْ صُورَةِ الْخَطِيئَةِ، وَكَانَ رَأَى عَلَى قَوَائِمِ الْعَرْشِ مَكْتُوبًا «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»: (سَأَلْتَنِي بِحَقِّهِ أَنْ أَغْفِرَ لَكَ، وَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ، وَلَوْلَاهُ مَا خَلَقْتُكَ). فَوُجِدَ أَدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُتَوَقِّفٌ عَلَى وَجُودِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَدَمَ أَبُو الْبَشَرِ، وَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَسَخَّرَ لَهُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، كَمَا هُوَ نَصُّ الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: «خَلَقَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا» [سُورَةُ الْبَقَرَةِ - مِنَ الْآيَةِ ٢٩]، «وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَانِيَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ - الْآيَةُ ٣٣]، وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ إِنَّمَا خَلَقَتْ لِأَجْلِ الْبَشَرِ، وَأَبُو الْبَشَرِ إِنَّمَا خُلِقَ لِأَجْلِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَتْ الدُّنْيَا إِنَّمَا خُلِقَتْ لِأَجْلِهِ فَيَكُونُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ السَّبَبُ فِي وَجُودِ كُلِّ شَيْءٍ.

وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، وَابَيْهَقِيُّ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ»، وَالْأَجَرِيُّ فِي «الشَّرِيعَةِ»، وَطَبْرَانِيُّ فِي «الْمَعْجَمِ الْأَوْسَطِ».

(٢) الْبُسْرُ هُوَ تَمَرُ النَّخْلِ قَبْلَ أَنْ يُرْطَبَ، وَالْعِذْقُ هُوَ كُلُّ غُصْنٍ لَهُ شُعْبٌ، وَعِذْقُ النَّخْلَةِ يُسَمَّى أَيْضًا «قَنُو» وَجَمْعُهُ «قَنَوَانٌ»، قَالَ تَعَالَى: «وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قَنَوَانٌ دَانِيَةٌ» [سُورَةُ الْأَنْعَامِ - مِنَ الْآيَةِ ٩٩].

(٣) السُّكَيْنُ الْكَبِيرُ.

(٤) ذَاتُ اللَّيْنِ.

(٥) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الْأَشْرِيَّةِ، بَابُ جَوَازِ اسْتِتْبَاعِهِ غَيْرِهِ إِلَى دَارٍ مِنْ يَتَّقُ بَرَضَهُ بِذَلِكَ وَيَتَّقُهُ تَحَقُّقًا تَامًا وَاسْتِحْبَابَ الْجَمَاعَةِ عَلَى الطَّعَامِ. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ كَذَلِكَ فِي سُنَنِهِ، كِتَابُ الزَّهْدِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مَا جَاءَ فِي مَعِيشَةِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٣٤- مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ وَالثَّقَلَيْنِ وَالْفَرِيقَيْنِ مِنْ غَرْبٍ وَمِنْ عَجَمٍ

مُحَمَّدٌ خَيْرٌ مُبْتَدَأٍ مُقَدَّرٍ، أَيِ الْمَمْدُوحِ مُحَمَّدٌ، وَوَصَفُهُ بِصِفَاتٍ فِي الْبَيِّنَتَيْنِ^(١) فَقَالَ: سَيِّدُ أَهْلِ الْكَوْنَيْنِ أَيِ الْوُجُودَيْنِ، وَوُجُودِ الدُّنْيَا وَوُجُودِ الْآخِرَةِ، بِمَعْنَى الْمَوْجُودَيْنِ فِيهِمَا، وَسَيِّدُ الثَّقَلَيْنِ أَيِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَسَيِّدُ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ غَرْبٍ وَمِنْ عَجَمٍ. هَذَا وَمَا قَبْلَهُ^(٢) مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، لِلتَّصْرِيحِ بِهِ فِي مَقَامِ الْمَدْحِ، وَ«مِنْ» لِبَيَانِ الْجِنْسِ، وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِ«الْفَرِيقَيْنِ».

٣٥- نَبِيُّنَا الْأَمْرُ النَّاهِي، فَلَا أَحَدٌ أَبَرَّ فِي قَوْلٍ «لَا» مِنْهُ وَلَا «نَعَمْ»

نَبِيُّنَا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ النَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ أَبَرَّ -بِالنَّصَبِ- أَيِ أَصْدَقَ فِي قَوْلٍ «لَا» مِنْهُ، وَلَا قَوْلٍ «نَعَمْ»، بَلْ هُوَ أَبَرُّ مِنْهُمْ، أَيِ أَصْدَقُ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ. وَالْفَاءُ لِمُجَرَّدِ الْعَطْفِ، وَ«فِي» وَ«مِنْ» مُتَعَلِّقَانِ بِ«أَبَرَّ»، وَ«لَا» الثَّانِيَةُ زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ.

٣٦- هُوَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ لِكُلِّ هَوَلٍ مِنَ الْأَهْوَالِ مُقْتَحَمٍ

هُوَ الْحَبِيبُ لِلَّهِ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ عِنْدَهُ، لِكُلِّ هَوَلٍ أَيْ مَخُوفٍ مِنَ الْأَهْوَالِ مُقْتَحَمٍ -بِفَتْحِ الْحَاءِ- أَيْ يَقْتَحِمُ فِيهِ الْخَلْقُ، أَيْ يَقْعُونَ فِيهِ، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

(١) أَيِ شَطْرَيْ الْبَيْتِ، وَإِلَّا فَالْقَصِيدَةُ كُلُّهَا فِي مَدْحِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

(٢) أَيِ الْأَبْيَاتِ الَّتِي قَبْلَهُ، بَدَأَ مِنَ الْبَيْتِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ «ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ...».

قَالَ النَّوَوِيُّ^(١): «وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ شَفَاعَاتُ خَمْسٍ: الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى لِلْفَضْلِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَوْقِفِ، وَفِي جَمَاعَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَفِي نَاسٍ اسْتَحَقُّوا النَّارَ فَلَا يَدْخُلُونَهَا، وَفِي نَاسٍ دَخَلُوا النَّارَ فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا، وَفِي رَفْعِ نَاسٍ فِي الْجَنَّةِ. وَالْمُخْتَصُّ بِهِ مِنْهَا الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الثَّلَاثَةُ وَالْخَامِسَةُ أَيْضًا».

وَزَادَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْخَمْسِ شَفَاعَاتٍ أُخْرَى، يَرْجِعُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضِ الْخَمْسِ، كَخُرُوجِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ مِنَ النَّارِ، وَتَخْفِيفِ عَذَابِ بَعْضِ أَهْلِ النَّارِ، كَمَا فِي عَمِّ أَبِي طَالِبٍ.

و«مِنَ الْأَهْوَالِ»، وَ«مُقْتَحَمٌ» صِفَتَانِ لـ «هَوَلٍ»، وَ«مِنَ» لِلتَّبْعِيضِ.

٣٧- دَعَا إِلَى اللَّهِ فَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلِ غَيْرِ مُنْقَصِمٍ

دَعَا أَيُّ طَلَبَ إِلَى اللَّهِ أَيُّ إِلَى دِينِهِ -وَهُوَ الْإِسْلَامُ- عِبَادَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لَهُ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾^(٢) أَيُّ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ أَيُّ فَالْمُعْتَصِمُونَ بِالنَّبِيِّ فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلِ أَيُّ بِسَبَبٍ غَيْرِ مُنْقَصِمٍ -بِالْفَاءِ- أَيُّ غَيْرِ مُنْقَطِعٍ، وَهَذَا مَاخُذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾^(٣).

(١) هُوَ الْإِمَامُ يَحْيَى بْنُ شَرَفِ النَّوَوِيِّ، الشَّافِعِيُّ، أَبُو زَكْرِيَا، مُحِبِّي الدِّينِ (٦٣١-٦٧٦ هـ) عَلَّامَةٌ بَالْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ، مِنْ أَشْهُرِ تَصَانِيفِهِ «شَرْحُ صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، وَ«رِيَاضُ الصَّالِحِينَ» وَ«الْأَرْبَعُونَ النَّوَوِيَّةُ»، وَ«تَهْذِيبُ الْأَسْمَاءِ وَاللِّغَاتِ»، وَ«الْمَجْمُوعُ شَرْحُ الْمَهْذَبِ» فِي الْفِقْهِ الشَّافِعِيِّ، وَ«مَنْهَاجُ الطَّالِبِينَ»، وَالكَثِيرُ غَيْرُهَا.

(٢) سُورَةُ النَّحْلِ - مِنْ آيَةِ ١٢٥

(٣) سُورَةُ الْبَقَرَةِ - مِنْ آيَةِ ٢٥٦

٣٨- فَاَقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ وَلَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمٍ

فاق النبيين كلهم، كغيرهم المفهوم بالأولى، في خلق -بفتح المفعلة- أي صورة وشكل ولون وغيرها، وفي خلق -بضم المفعلة- وهو ما طبع عليه من الخصال الحميدة، ولم يدانوه أي يقاربوه في علم ولا كرم، كما تشهد لذلك الأدلة المعروفة، وهذا إخبار بالواقع فليس فيه تنقيص لأحد من النبيين. و«لا» زائدة لتأكيد النفي.

٣٩- وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولٍ اللَّهِ مُلْتَمِسٍ غَرْفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدَّيَمِ

وكلهم من رسول الله ملتمس، أي أخذ مما أوتيته من العلم والحكمة في علم الله تعالى، غرقاً من البحر، أو رشفاً -أي مصاً- من الديم، جمع «ديمة»، وهي المطر الدائم^(١).

و«من رسول الله» متعلق بـ «ملتمس»، و«من» فيه وفيما بعده للابتداء، و«غرقاً» مفعول «ملتمس»، و«أو» للتقسيم.

ونظر في قوله «ملتمس» إلى لفظ «كل»، وعطف عليه -نظراً لمعناها^(٢)- قوله:

(١) قال الباجوري: وقوله «غرقاً من البحر أو رشفاً من الديم» أي حال كون بعض الملتسمين مغترفاً من البحر، وبعضهم مرتشفاً من الديم، فهو إشارة إلى اختلاف أحوال الملتسمين، فأولوا العزم مثلاً أكثر التماساً من غيرهم، ... والمراد من البحر والديم هنا علمه وحلمه صلى الله عليه وسلم، ... وإنما عبر في جانب البحر بالغرف، وفي جانب الديم بالرشف، لأن الغرف مناسب للبحر لكثرة دون الديم، لأنها تجري على وجه الأرض فلا يجتمع منها ماء غالباً حتى يغترف.

(٢) أي معنى الجمع في لفظ «كل»، فعطف «واقفون» على «ملتسم».

٤٠- وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمْ مِنْ نُقْطَةِ الْعِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الْحِكْمِ

وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ أَي عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عِنْدَ حَدِّهِمْ -بِالْكَسْرِ وَالْإِشْبَاعِ- أَي غَايَتِهِمْ، مِنْ نُقْطَةِ الْعِلْمِ أَي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ مِنْ شَكْلَةِ (١) الْحِكْمِ جَمْعُ «حِكْمَةٍ» وَهِيَ صَوَابُ الْأَمْرِ وَسَدَادُهُ.

وَالْغَرَضُ مِنَ الْبَيْتِ أَنْ غَايَةً مَا أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ مَبْدَأٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْجَمِيعِ. وَنَاسَبَ بـ «الشَّكْلَةِ» «النُّقْطَةُ»، وَلِزِيَادَةِ التَّفْهِيمِ بِهَا عَلَى النُّقْطَةِ خَصَّهَا بِالْحِكْمَةِ (٢).

وَالظَّرْقَانِ مُتَعَلِّقَانِ بـ «وَاقِفُونَ»، وَيجوزُ أَنْ يَكُونَ الثَّانِي بَدَلًا مِنَ الْأَوَّلِ، وَ«مِنْ» لِبَيَانِ «حَدِّهِمْ»، وَ«أَوْ» لِلتَّقْسِيمِ.

٤١- فَهُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيبًا بَارِئُ النَّسَمِ

فَهُوَ الَّذِي تَمَّ أَي كَمَلَ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ (٣)، أَي بَاطِنُهُ فِي الْكَمَالَاتِ وَظَاهِرُهُ فِي الصِّفَاتِ، ثُمَّ اصْطَفَاهُ أَي اخْتَارَهُ حَبِيبًا لَهُ، بَارِئُ أَي خَالِقُ النَّسَمِ جَمْعُ «نَسَمَةٍ» وَهِيَ الْإِنْسَانُ. وَ«ثُمَّ» لِلتَّرْتِيبِ فِي الْإِخْبَارِ.

(١) الشَّكْلَةُ تُطْلَقُ عَلَى إِحْدَى الْحَرَكَاتِ الَّتِي تَضْبِطُ بِهَا الْحُرُوفُ، كَالْكَسْرِ وَالضَّمَّةَ وَغَيْرَهَا.

(٢) قَالَ الْإِمَامُ الْبَاجُورِيُّ فِي ذَلِكَ: وَإِنَّمَا خَصَّ النُّقْطَةَ بِالْعِلْمِ، وَالشَّكْلَةَ بِالْحِكْمِ، لِأَنَّ النُّقْطَةَ تَمِيزُ الْحُرُوفَ الْمَشْتَبِهَةَ الصُّوَرِ، وَالْعِلْمَ خَاصَّتَهُ التَّمْيِيزَ، لِأَنَّهُ صِفَةٌ تَقْتَضِي تَمْيِيزًا لَا يَحْتَمِلُ النَّقِیْضَ بَوَجهِ، وَالشَّكْلَةُ بِهَا يُضَافُ الْحُكْمُ لِصَاحِبِهِ مَعَ زَوَالِ اللَّیْسِ وَالِاخْتِلَالِ، وَالْحِكْمَةُ فَانْدَتْهَا وَضَعُ الشَّيْءِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ لِنَلَا يَخْتَلِ النَّظَامُ.

(٣) فَالْمَعْنَى يَرْجِعُ إِلَى الْخُلُقِ، وَالصُّورَةُ تَرْجِعُ إِلَى الْخَلْقِ.

٤٢- مُنَزَّهُ عَنِ شَرِيكَ فِي مَحَاسِنِهِ فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمٍ

مُنَزَّهُ أَي مُبَعَّدٌ عَنِ شَرِيكَ لَهُ فِي مَحَاسِنِهِ، مَعْنَى وَصُورَةً، وَ«مَحَاسِنٌ» جَمْعُ «حُسْنٍ» عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ، أَوْ جَمْعُ «مَحْسِنٍ» بِمَعْنَى «حَسَنٌ»، فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ الْمَوْجُودِ فِيهِ، غَيْرُ مُنْقَسِمٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ، لاختصاصه به، بِخِلَافِ حُسْنِ سَائِرِ النَّاسِ فَإِنَّهُ مُنْقَسِمٌ بَيْنَهُمْ، وَمِنْهُ حُسْنُ يُوْسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّهُ كَمَا فِي مُسْلِمٍ: (أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ) ^(١) أَي نِصْفَهُ ^(٢).

و«فِي مَحَاسِنِهِ» تَنَازَعُهُ «مُنَزَّهُ»، وَ«شَرِيكَ».

٤٣- دَعَا مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَذْحًا فِيهِ وَاحْكُمْ

دَعَا أَي اذْكُرْكَ فِي مَذْحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ بِالْكَسْرِ وَالْإِشْبَاعِ - أَي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنْ قَوْلِهِمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ ^(٣).

وَاحْكُمْ أَي اقْضِ بِمَا شِئْتَ مَذْحًا - تَمْيِيزٌ - أَي ثَنَاءً حَسَنًا فِيهِ، أَي فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ وَاحْكُمْ، أَي وَخُذْ فِي مَدْحِهِ حُكْمَكَ، وَلَا

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْإِسْرَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَفَرْضِ الصَّلَوَاتِ، بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَفِيهِ (... ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قِيلَ: وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ، فَفَتَحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ..).

(٢) يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَاجُورِيُّ فِي ذَلِكَ: وَإِنَّمَا لَمْ يَفْتَنَّ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا افْتَنَّ بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِأَنِّ جَمَالَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَتَرَ بَجَالَهُ، فَلَمْ يُمْكِنْ أَحَدًا أَنْ يَتَأَمَّلَ فِيهِ حَتَّى يَفْتَنَّ بِهِ.

(٣) سُورَةُ التَّوْبَةِ - مِنَ الْآيَةِ ٣٠

تَغُلْ فِيهِ إِلَى مَا هُوَ مُمْتَنِعٌ^(١). وَقَوْلُهُ «فِيهِ» تَنَازَعُهُ «أَحْكَمُ» وَ«مَنْحَا».

٤٤- وَأَنْسَبَ إِلَى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ وَأَنْسَبَ إِلَى قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمٍ

وَأَنْسَبَ أَيِ أَصِفَ إِلَى ذَاتِهِ الْكَرِيمَةِ، مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ أَيِ عُلُوٍّ وَرِفْعَةٍ،
وَأَنْسَبَ إِلَى قَدْرِهِ أَيِ تَعْظِيمِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمٍ، أَيِ تَعْظِيمٍ.

و«مِنْ» فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِبَيَانِ الْجِنْسِ أَوْ لِلتَّبْعِيضِ، وَخَصَّ الذَّاتَ بِالشَّرَفِ
لِمُنَاسَبَتِهَا لَهُ فِي الْعُلُوِّ، لِأَنَّهَا مُدْرَكَةٌ بِالْبَصَرِ كَالْمَكَانِ الْعَالِيِّ، وَالْقَدْرَ بِالْعِظَمِ
لِمُنَاسَبَتِهِ لَهُ فِي عَدَمِ النِّهَايَةِ وَالْإِحَاطَةِ. وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

٤٥- فَإِنْ فَضَّلَ رَسُولُ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ، فَيُعَرِّبُ عَنْهُ نَاطِقٌ بِقَمٍ

فَإِنْ فَضَّلَ رَسُولُ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ أَيِ غَايَةٍ، فَيُعَرِّبُ -بِالنَّصْبِ جَوَاباً لِلنَّفْيِ-
أَيِ فَيُفْصِحُ عَنْهُ نَاطِقٌ، أَيِ مُتَكَلِّمٌ بِقَمٍ.

(١) وهذا مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام البخاري في كتاب الأنبياء من صحيحه، بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله). والإطرء هو المدح بالباطل، وعبر شيخ الإسلام العلامة زكريا الأنصاري عن ذلك المعنى بقوله «ولا تغل فيه إلى ما هو ممتنع»، وفي تعليق له على هذا الحديث قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: «قوله: (وقولوا عبد الله) في رواية مالك: «فإنما أنا عبد الله فقولوا»، قال ابن الجوزي: لا يلزم من النهي عن الشيء وقوعه لأننا لا نعلم أحداً ادعى في نبينا ما ادعته النصارى في عيسى، وإنما سبب النهي فيما يظهر ما وقع في حديث معاذ بن جبل لما استأذن في السجود له فامتنع ونهاه، فكانه خشي أن يبالغ غيره بما هو فوق ذلك، فيادر إلى النهي تأكيداً للكرم». وكل نهى عن المدح إنما هو من هذا القبيل، وإلا فهو صلى الله عليه وسلم قد سمع مدحه وأقره.

والمعنى لا حدَّ له في الواقع^(١)، فلا يُفصِّح عنه اللسان، وعَبَّرَ عنه بالفَم، لأنَّه مَحَلُّهُ، وذكرَ «الفَم» بعدَ «ناطق» للتعميم في كُلِّ ناطقٍ من عرَبِيٍّ وَعَجَمِيٍّ، كَنَظِيرِهِ في ذِكْرِ (في الأرض) بعدَ (دَابَّةً)، و(بِجَنَاحِيهِ) بعدَ (طَائِرٍ) في آية ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾^(٢).

٤٦- لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظْمًا أَحْيَا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِسَ الرَّمَمِ

لو ناسبت قدره آياته عظمًا أي في العظم، أحيا اسمه حين يُدعى أي ينادى به، دارِس - بالنصب مفعولٌ «أحيا» - وهو بمعنى مدرّس الرَّمَم أي العظام البالية، ودروسها زيادة في البلى، أي أحيا اسمه ببركته ذلك حين يُدعى به لإحيائه، كأن يُقال: «يا الله! بِمُحَمَّدٍ النَّبِيِّ أَخِي هذا» فيَحْيَا، فيكون الإحياء المذكور من آياته.

والمعنى: لو ناسبت قدره في العظم آيات له، كان منها الإحياء المذكور، لأنَّه أعظمُ آية، وبه تكونُ الآياتُ مُناسِبةً لِقَدْرِهِ الذي هو أعظمُ قَدْرٍ، لكنَّ الله تعالى لم يجعلِ الإحياءَ المذكورَ من آياته فليست كَقَدْرِهِ في العظم، وإن كان منها القرآنُ المثلُّو، وسيأتي قولُ الناظم فيه: «آياتٌ حقٌ من الرِّخَمِ مُخَدَّنَةٌ»، وقوله في النَّبِيِّ: «وأنَّه خيرُ خلقٍ اللهُ كُلَّهُمْ».

وَأَنْتَ خَيْرٌ بَأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ جَعْلِ الْإِحْيَاءِ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَكُونَ آيَاتُهُ مُنَاسِبَةً

(١) من لطيف ما قيل في ذلك ما نقله الإمام الباجوري عن العارف بالله الشيخ علي وفا، في قول الله تعالى ﴿وَلَاخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [سورة الضحى - الآية ٤] أن معناه: إن اللحظة المتأخرة خير لك من اللحظة المتقدمة، لأنه صلى الله عليه وسلم يترقى في الكمالات زائدة عما ترقى إليه في المتقدمة.

(٢) سورة الأنعام - من الآية ٣٨

لِقَدْرِهِ، إِلَّا أَنْ يُرِيدَ حِينَئِذٍ مَجْمُوعَهَا، إِذِ الْمُنَاسِبُ لِقَدْرِهِ إِنَّمَا هُوَ إِحْيَاؤُهُ فَقَطْ، وَلَا يُنَافِي مَا تَقَرَّرَ جَعَلَ الْإِحْيَاءَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَأَمَّلْ^(١).

و «عِظَمًا» منصوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ كَمَا تَقَرَّرَ، أَوْ بِأَنَّهُ تَمْيِيزٌ مُحَوَّلٌ مِنَ الْفَاعِلِ وَهُوَ «آيَاتُهُ»، أَوِ الْمَفْعُولِ وَهُوَ «قَدْرُهُ»، وَإِضَافَةٌ «دَارِسٍ» لِلْبَيَانِ، وَهِيَ مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ.

٤٧- لَمْ يَمْتَحِنَا بِمَا تَغْيَا الْعُقُولُ بِهِ حِرْصًا عَلَيْنَا، فَلَمْ نَرْتَبْ، وَلَمْ نَهْم

لَمْ يَمْتَحِنَا أَيِ يَنْتَلِيْنَا فِي التَّكْلِيفِ وَالتَّفْهِيمِ بِمَا تَغْيَا الْعُقُولُ بِهِ، أَيِ بِمَا لَمْ تَهْتَدِ لَوَجْهِهِ، حِرْصًا عَلَيْنَا أَنْ لَا نُضِلَّ، فَلَمْ نَرْتَبْ أَيِ نَشْكُ فِيمَا أَتَانَا بِهِ، وَلَمْ نَهْم أَيِ نَتَحَيَّرْ فِيهِ، بَلْ نَنْظُنُّهُ أَوْ نَتَيَقَّنُهُ.

(١) ويلاحظ هنا -كما أشار إلى ذلك الباجوري في شرحه- أن الكلام في إحياء اسمه للموتى حين يدعى به، وهذا كما لم يجعل من آياته صلى الله عليه وسلم، لم يجعل من آيات عيسى عليه السلام، وإنما الذي جعل من آيات عيسى إحياءه الموتى بإذن الله. ومقصود الإمام البوصيري هنا -والله أعلم- أن الله تعالى لم يُغَطِّ النبي صلى الله عليه وسلم كُلَّ معجزاته في الدنيا، لأنه ادخر له المقام المحمود الذي ينفرد به عن الخلائق من أنبياء ومرسلين وشهداء وصالحين وغيرهم يوم القيامة، وقد كان ذلك لحكمة ربانية علوية، ولو أن الله تعالى أعطاه من المعجزات ما يتناسب مع كونه خاتم الأنبياء والمرسلين وسيد ولد آدم أجمعين، لكان من بينها إحياء الموتى بذكر اسمه صلى الله عليه وسلم. وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن لا يُظْهِرَ كل الآيات في الدنيا ليبقى ليوم النشور الشيء الكثير، وليس ذلك في حق مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحسب، بل حتى في حق القرآن الكريم. يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا سَوَّيْنَاهُ بِهَ الْجِبَالِ أَوْ قَطَعْنَاهُ بِهَ الْأَرْضِ أَوْ كَلَّمْ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لَلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [سورة الرعد - من الآية ٣١]: «يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّا سَوَّيْنَاهُ بِهَ الْجِبَالِ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتتشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك».

وكان صلى الله عليه وسلم يضربُ الأمثالَ بالمخسوساتِ، ليتَّضحَ ما يخفى عن بعضِ الناسِ إدراكه، حرصاً على هدايتهم، أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١)، وقوله: ﴿التَّبَيَّنْ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٢). وقول الناظم «ولم نهم» من عطف العام على الخاص.

٤٨- أَعْيَا الْوَرَى فَهُمْ مَعْنَاهُ، فَلَيْسَ يُرَى فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ فِيهِ غَيْرُ مُنْفَحِمٍ

أَعْيَا الْوَرَى أي أعجز الخلق فهم معناه، أي حاله الذي خصَّه الله تعالى به من المعارفِ الإلهية، والتخلقِ بالصفاتِ الربَّانية، فَلَيْسَ يُرَى فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مِنْهُ، فِيهِ سَبِيَاءٌ «يُرَى» لِلْمَفْعُولِ وهو - غيرُ مُنْفَحِمٍ، أي غيرُ عاجزٍ عن إدراكه. وَالْمَعْنَى أَنَّ كُلَّ مَنْ قُرْبٌ أَوْ بَعْدٌ مِنْهُ، عاجزٌ عن إدراكِ صفاته^(٣).

وما بعد «ليس» مُفسَّرٌ لِضَمِيرِ الشَّانِ فِيهَا، و«فيه» مُتَعَلِّقٌ بِ «مُنْفَحِمٍ»، وَالضَّمِيرُ فِي «فِيهِ» وَفِي «مَعْنَاهُ» لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَدْ شَبَّهَهُ فِي عَدَمِ إِدْرَاكِهِ، بِقَوْلِهِ:

٤٩- كَالشَّمْسِ، تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعْدٍ صَغِيرَةٍ، وَتُكَلِّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمٍ

كَالشَّمْسِ أي هو كالشمسِ حَالَتِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مِنْهَا، فَإِنَّهَا تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعْدٍ - بِضَمِّ الْعَيْنِ، لُغَةً فِي سُكُونِهَا - صَغِيرَةً قَدَّرَ الْمِرَاةَ، وَهِيَ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ

(١) سورة النحل - من الآية ٨٩

(٢) سورة النحل - من الآية ٤٤

(٣) أي فلم يُحِطْ بوصفه والوقوف على حاله أحد.

«تَظْهَرُ»، وَجُمْلَةُ «تَظْهَرُ» مُفَسَّرَةٌ لَوَجْهِ الشَّبَهِ أَوْ حَالٍ مِنْ «الشَّمْسِ»، وَعَطَفَ عَلَى «تَظْهَرُ» قَوْلُهُ وَتَكِلُ الطَّرْفَ بِضَمِّ التَّاءِ - أَيِ تُغَيِّي البَصَرَ عَنْ رُؤْيَيْهَا، مِنْ أَمَمٍ - بَفَتْحِ الهمزة - أَيِ مِنْ قَرِيبٍ مِنْهَا، لِأَنَّهَا لِكِبَرِهَا جِدًّا، تَكَادُ تَخْطِفُ البَصَرَ وَتُغْمِيهِ.

وَقَدْ قِيلَ إِنَّهَا قَدْرُ كُرَةِ الْأَرْضِ مِئَةَ مَرَّةٍ وَنِيفًا^(١) وَسِتِّينَ مَرَّةً، وَقِيلَ قَدْرُ الدُّنْيَا، فَهِيَ لَا تُدْرِكُ بِكَمَالِهَا حَالَتَيِ الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مِنْهَا وَإِنْ شُوهِدَتْ صَوْرَتُهَا، كَذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُدْرِكُ مَعْنَاهُ وَإِنْ شُوهِدَتْ صَوْرَتُهُ.

وَيُبْعَدُ الشَّمْسُ يَكُونُ حَالَتَيِ طُلُوعِهَا وَغُرُوبِهَا، وَقُرْبُهَا يَكُونُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ، وَقِيلَ: بُعْدُهَا وَاقِعٌ مُطْلَقًا وَقُرْبُهَا فَرَضٌ. وَ«مِنْ» لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ.

٥٠- وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ قَوْمٌ نِيَامَ، تَسَلَّوْا عَنْهُ بِالْحُلُمِ

وَكَيْفَ لِلِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِي، أَيِ لَا يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ أَيِ مَعْنَاهُ، قَوْمٌ نِيَامَ أَيِ غَافِلُونَ مَخْجُوبُونَ عَنْ ذَلِكَ، تَسَلَّوْا عَنْهُ أَيِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيِ عَنِ النَّظَرِ فِي حَقِيقَتِهِ، بِالْحُلُمِ بِضَمِّ اللَّامِ لُغَةً فِي سُكُونِهَا - أَيِ قَنَعُوا بِرُؤْيَيْهِ فِي النَّوْمِ، أَمَا فِي الْآخِرَةِ فَيُظْهَرُ لِكُلِّ الْخَلْقِ قَدْرُهُ وَمَنْزِلَتُهُ.

وَأَصْلُ «تَسَلَّوْا» تَسَلَّوْا، قُلِبَتْ الْوَاوُ الْأُولَى أَلْفًا لِتَحْرُكِهَا، وَانْفِتَاحِ مَا قَبْلَهَا، ثُمَّ خَفِضَتْ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ.

(١) «النِّيف» مَا زَادَ عَنِ الْعَشْرَةِ وَكَانَ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى ثَلَاثَةِ، أَمَا مَا كَانَ مِنْ أَرْبَعَةٍ إِلَى تِسْعَةٍ فَهُوَ «بِضْع».

٥١- فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ

فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ أَي غَايَةُ بُلُوغِ عِلْمِ الْخَلْقِ فِيهِ عَلَى الْجُمْلَةِ، أَنَّهُ بَشَرٌ مِنَ النَّاسِ، وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ^(١)، أَي مَخْلُوقَاتِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَغَيْرِهِمْ.

وَفَائِدَةُ ذِكْرِ «بَشَرٌ» دَفْعُ تَوَهُّمٍ أَنَّهُ مَلَكٌ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ خَيْرَ الْخَلْقِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَلَكًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ النَّسُوءِ: ﴿هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾^(٢).

٥٢- وَكُلُّ آيِ آتَى الرُّسُلَ الْكَرَامَ بِهَا فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمْ

وَكُلُّ آيِ جَمْعُ «آيَةٍ»، أَي مُعْجِزَةٍ آتَى الرُّسُلَ الْكَرَامَ بِهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا لَهُمْ أَنْوَارٌ يَهْتَدِي بِهَا، فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ -الَّذِي أَوْتِيَهُ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ- بِهِمْ، أَي فَنُورُهُمُ الَّذِي فَضَّلُوا بِهِ نَاشِيءٌ مِنْ نُورِهِ.

و«مِنْ» لِبِتْدَاءِ الْغَايَةِ، وَالْبَاءُ لِلإِلصَاقِ، وَهُمَا مُتَعَلِّقَانِ بِ«اتَّصَلَتْ». وَعَلَّلَ مَا ذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ:

(١) ينقل الدكتور زكي مبارك في كتابه «المدائح النبوية» ما أورده الرواة في شأن هذا البيت، حيث قالوا إن الإمام البوصيري لما أنشأ هذه القصيدة رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، فأنشدها بين يديه إلى أن بلغ قوله: فمبلغ العلم فيه أنه بشر، ثم توقف ولم يتمكن من إكمال البيت، فأكماله له النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقال له: «قل: وأنه خير خلق الله كلهم»، فأدرج البوصيري هذا الشطر الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم في البيت المتقدم، كما أنشأ منه بيتاً آخر درج المادحون في مجالسهم على ترديده بعد كل بيت من أبيات القصيدة، وهو: مولاي صل وسلم دائماً أبداً على حبيبك خير الخلق كلهم.

(٢) سورة يوسف - من الآية ٣١

٥٣- فَإِنَّهُ شَمْسٌ فَضْلٌ هُمْ كَوَاكِبُهَا يُظْهِرْنَ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

فإنه لزيادة فضله شمس فضل، هم كواكبها، ونورها مستفاد من نور الشمس، يُظهِرْنَ أي الكواكب، أنوارها أي الشمس للناس في الظلم، لأنها حال غيبتها - كما قيل تحت الأرض، وهي أكبر منها مر - يفيض نورها على الكواكب بعد ارتفاعها، فإذا ظهرت لا يبقى للكواكب نور^(١).

والنبي صلى الله عليه وسلم لما ظهر، نسخت شريعته شرائع من قبله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٥٤- أَكْرَمَ بِخَلْقِ نَبِيٍّ زَانَهُ خُلُقُ بِالْحُسْنِ مُشْتَمِلٍ، بِالْبِشْرِ مُتَّسِمٍ

أكرم فعل أمر معناه التعجب، وفاعله بخلق نبي - زيادة الباء لزوماً إصلاحاً للفظ، لأن الأمر بغير لام لا يكون فاعله ظاهراً، وسهل ظهوره كون عامله تعجباً في المعنى لا أمراً - أي ما أكرم خلقه عند الله، زانه خلق أي حسنه بمعنى زاده حسناً، قال الله تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢).

بالحسن متعلق بقوله مشتمل - بالجر - صفة نبي، وكذا قوله: بالبشر متسم، أي مُصِيفٌ ببشاشة الوجه والسرور به، وهو أيضاً:

(١) يقول الباجوري في شرحه على هذا البيت: وظاهر هذا البيت أنه صلى الله عليه وسلم مرسل للأمم السابقة، لكن بواسطة الرسل، فهم نواب عنه صلى الله عليه وسلم، وبهذا قال الشيخ السبكي ومن تبعه، أخذوا من قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [سورة آل عمران - من الآية ٨١].

(٢) سورة القلم - الآية ٤

٥٥- كالزَّهْرِ فِي تَرْفٍ، وَالْبَذْرِ فِي شَرْفٍ وَالْبَحْرِ فِي كَرَمٍ، وَالذَّهْرِ فِي هِمَمٍ

كَالزَّهْرِ وَهُوَ نَوْرُ النَّبَاتِ^(١)، فِي تَرْفٍ أَي تَتَعَمُّ، قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: «مَا مَسَسْتُ حَرِيرًا، وَلَا دِيْبَاجًا أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٢)، وَكَالْبَذْرِ أَي الْقَمَرِ لَيْلَةً كَمَالِهِ، وَهِيَ لَيْلَةُ الرَّابِعِ عَشَرَ، فِي شَرْفٍ، وَشَرْفُهُ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ اللَّيْلِيَّةِ، وَشَرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَائِرِ الْخَلْقِ.

وَكَالْبَحْرِ فِي كَرَمٍ، قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: مَا سَنِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أُعْطَاهُ، قَالَ: فَسَأَلُهُ رَجُلٌ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: يَا قَوْمِ اسْلُمُوا فَوَاللَّهِ إِنْ مُحَمَّدًا لِيُعْطِيَ عَطَاءً مَنْ لَا يَخَافُ الْفَقْرَ^(٣). وَمِنْ كَرَمِ الْبَحْرِ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةِ ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾^(٤).

وَالذَّهْرُ أَي الزَّمَنُ، فِي هِمَمٍ جَمْعُ «هِمَّةٍ» - يَكْسُرُ الْهَاءَ وَفَتْحُهَا - وَهِيَ الْعَزْمُ^(٥)، وَمِنْ هِمَمِ الذَّهْرِ مَا ذَكَرَهُ مُعَاوِيَةُ^(٦) رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِقَوْلِهِ: «مَنْ

(١) يُقَالُ «أَنَارَ الشَّجَرُ نَوْرًا» إِذَا أَزْهَرَ.

(٢) رَوَاهُ الشَّيْخَانُ: الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الْمَنَاقِبِ، بَابُ صِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الْفَضَائِلِ، بَابُ طِيبِ رَائِحَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْنَ مَسْكِهِ.

(٣) رَوَاهُ الشَّيْخَانُ إِلَّا صَدْرَهُ فَمُسْلِمٌ: مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الْفَضَائِلِ، بَابُ مَا سَنِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطْ فَقَالَ لَا، وَكَثْرَةُ عَطَائِهِ.

(٤) سُورَةُ النَّحْلِ - مِنَ الْآيَةِ ١٤

(٥) الْهِمَّةُ هِيَ الْعَزْمُ عَلَى الشَّيْءِ وَالْإِرَادَةُ لَهُ، وَنِسْبَةُ الْهِمَّةِ إِلَى الذَّهْرِ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ، فَإِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لِلذَّهْرِ عَزِمَاتٍ وَإِرَادَاتٍ وَيَشْبِهُونَ الْمَمْدُوحَ بِهِ فِي تِلْكَ الْعَزِمَاتِ وَالْإِرَادَاتِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْحَادِثَاتِ الدَّقِيقَةَ إِنَّمَا تَقَعُ فِي الذَّهْرِ فَيَنْسَبُونَهَا إِلَيْهِ.

(٦) هُوَ الصَّحَابِيُّ مُعَاوِيَةُ بْنُ صَخْرٍ بْنِ حَرْبٍ بْنِ أُمِيَّةَ، أَبُو سَفْيَانَ (٢٠ ق. ٥٠ - ٦٠ هـ) مُؤَسِّسُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ فِي الشَّامِ وَأَحَدُ عِظَمَاءِ الْفَاتِحِينَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَوَّلُ مُسْلِمٍ رَكِبَ بَحْرَ الرُّومِ لِلْغَزْوِ. أَسْلَمَ يَوْمَ الْفَتْحِ سَنَةَ ٨ هـ وَتَعَلَّمَ الْكِتَابَةَ وَالْحِسَابَ فَجَعَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كِتَابِهِ.

رَفَعْنَاهُ ارْتَفَعَ، وَمِنْ وَضَعْنَاهُ اتَّضَعَ». وَهَذِهِ التَّشْبِيهَاتُ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ، وَالْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ، وَكَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ النَّاظِمُ بَعْدَ بَقُولِهِ: «فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا»، وَهُوَ أَيْضاً:

٥٦- كَانَهُ وَهُوَ فَرْدٌ، مِنْ جَلَالَتِهِ فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلَقَّاهُ وَفِي حَشَمٍ

كَأَنَّهُ وَهُوَ، أَيْ وَالْحَالَةُ أَنَّهُ فَرْدٌ، مِنْ جَلَالَتِهِ أَيْ عَظَمَتِهِ، كَائِنٌ فِي عَسْكَرٍ أَيْ جَيْشٍ، حِينَ تَلَقَّاهُ وَفِي حَشَمٍ، أَيْ خَدَمٍ يَغْضَبُونَ لِغَضَبِهِ. وَ«حِينَ تَلَقَّاهُ» مُتَعَلِّقٌ بِ«كَأَنَّهُ»، وَ«مِنْ جَلَالَتِهِ» عَلَّةٌ لِلتَّشْبِيهِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ «كَأَنَّهُ».

وَالْقَصْدُ تَشْبِيهُهُ مُفَرِّداً بِنَفْسِهِ، مَضْحُوباً بِعَسْكَرٍ وَحَشَمٍ فِي الْهَيْبَةِ وَالْوَقَارِ^(١)، وَذَلِكَ فِي الْمُشَبَّهِ بِهِ أَعْلَى.

٥٧- كَانَمَا اللَّوْلُوُ الْمَكْنُوءُونَ فِي صَدَفٍ مِنْ مَعْدِنِي مَنْطِقٍ مِنْهُ وَمُتَبَسِّمٍ

كَأَنَّمَا اللَّوْلُوُ الْمَكْنُوءُونَ أَيْ الدُّرُّ الْمَصُونُ فِي صَدَفٍ، أَيْ فِي غِشَائِهِ، وَهُوَ فِيهِ لَكُونٌ مَعْدِنِهِ أَحْسَنَ مِنْهُ فِي غَيْرِهِ، كَائِنٌ مِنْ مَعْدِنِي مَنْطِقِي أَيْ كَلَامِ كَائِنٍ مِنْهُ، أَيْ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمُتَبَسِّمٍ بِفَتْحِ السَّيْنِ - أَيْ مَحَلِّ ابْتِسَامٍ مِنْهُ، وَهُوَ الثَّغْرُ، أَيْ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَسْنَانِ.

(١) فكما أنه صلى الله عليه وسلم يكون له هيبة ووقار إذا كان في عسكر وحشم، فكذلك الحال عندما يكون منفرداً بنفسه.

وإضافة «مغني» للبيان، أي من كلامه وثغره لحسنهما في غاية، وهذا التشبيه عكس ما جرت به العادة من تشبيه الكلام والثغر المليحين باللولو، لكون العكس المناسب للمقام أبلغ، ففي كلامه ترق في المدح، حيث جرى في بيت «كالزهر في ترف» على ما جرت به العادة، وهنا على عكسه.

و«ما» زائدة كافة، و«من» في الموضعين للابتداء. ولما مدحه في حياته بما مر، مدحه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، فقال:

٥٨- لا طيب يغدل تراباً ضم أعظمه طوبى لمن تشق منه وملثم

لا طيب يغدل تراباً، أي يساوى تراباً ضم أعظمه، من رائحتها الطيبة في غاية. قال أنس رضي الله عنه: ما شمت عنبراً ولا مسكاً ولا شيئاً أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١).

طوبى لمن تشق أي شام منه بأنفه، وملثم أي مغمر منه موضع اللثام. و«طوبى» مضدر من الطيب، أو الجنة، أو شجرة فيها يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها.

وهو مرفوع بالابتداء خبره ما بعده، أو منصوب بكونه مضدراً بدلاً من اللفظ بفعله وهو «طاب»، فهو على الثاني دعاء لمن استنشق والتئم من تلك التربة، واللام بعدها حينئذ للبيان، نحو «سقيا لك».

(١) رواه الشيخان: البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب طيب رائحة النبي صلى الله عليه وسلم ولين مسكه والتبرك بمسحه.

وَمَعْنَى أَطْيَبِيَّةِ تَرْتِيهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهَا أَطْيَبُ رِيحاً عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنْ غَيْرِهَا، أَوْ مُطْلَقاً، لَكِنَّ أَحْوَالَ الْقَبْرِ مِنَ الْأُمُورِ الْأُخْرَوِيَّةِ لَا يَذْكُرُهَا مِنَ الْأَحْيَاءِ إِلَّا مَنْ كُشِفَ لَهُ الْغِطَاءُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَيْضاً لَا يَلْزَمُ مِنْ قِيَامِ الْمَعْنَى إِذْرَاكُهُ لِكُلِّ أَحَدٍ، لَجَوَازِ انْتِفَاءِ شَرْطِ أَوْ قِيَامِ مَانِعٍ، وَعَدَمُ الْإِدْرَاكِ لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الْمُدْرَكِ، إِذْ انْتِفَاءُ الدَّلِيلِ لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الْمَذْلُولِ^(١).

(١) يقول الإمام الباجوري في بيان هذا المعنى: «... ألا ترى أن المزموم لا يدرك رائحة المسك، مع أنها قائمة به، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار)»، ولا شك أن قبره صلى الله عليه وسلم روضة من رياض الجنة، بل أفضلها، وقد قال أيضاً عليه الصلاة والسلام: (ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة)**، وكل من القبر والمنبر داخل في حكم ما بينهما، أما القبر فللخبر العام الذي ذكر، وأما المنبر فلقوله صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث (ومنبري على حوضي، والحوض من الجنة)***، وإذا تقرر كون هذا المكان من الجنة، لم يبق عند العاقل المصدق بالشرعية امتراء في أنه لا طيب يعدله».

وقد كان أول من استنشق طيب تربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد دفنه ابننته الرضية وبضعته الزكية السيدة فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها، وحين استنشقته استنشقت من المعاني ما أشار إليه الإمام البوصيري رضي الله تعالى عنه، فقالت:

ماذا على من شم تربة أحمد ألا يشم مدى الزمان غواليها
صنبت علي مصائب لو أنها صنبت على الأيام عن لياليها

و«الغوالي» جمع «غالية» وهو طيب معروف.

* روى صدر هذا الحديث الإمام الترمذي في سننه، كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بلفظ: (إن القبر أول منازل الآخرة)، وروى عجزه في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بلفظ: (إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار).

** رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل ما بين القبر والمنبر، بلفظ: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة*).

*** رواه أحمد في مسنده بلفظ: (إن منبري على حوضي).

الفصل الرابع: في مولده عليه الصلاة والسلام

٥٩- أَبَانَ مَوْلَاهُ عَنْ طِيبِ غُنْصِرِهِ يَا طِيبَ مُفْتَتِحِ مِنْهُ، وَمُخْتَتَمِ

أَبَانَ مَوْلَاهُ أَي كَشَفَ عَنْ طِيبِ غُنْصِرِهِ، أَي خُلُوصِ فِي أَضْلِهِ عَنْ رَبِّهِ فِي نَسَبِهِ، كَمَا قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لَيْسَ فِينَا سِفَاحٌ، كُلُّنَا نِكَاحٌ مِنْ آدَمَ الْبَيْنَا)^(١)، لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَهُمْ الْمُرَادُونَ بِمَوْلَاهُ، أَي مَكَانَ وَلادَتِهِ مَجَازًا.

يَا طِيبَ مُفْتَتِحٍ وَفِي نُسخَةٍ «مُبْتَدَأ» مِنْهُ الْعُنْصُرُ، وَمُخْتَتَمٍ بِهِ الْعُنْصُرُ، فَقَدْ افْتَتِحَ بِهَاشِمٍ^(٢)، وَاخْتَتَمَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي مُسْلِمٍ: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةٍ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)^(٣).

و«عَنْ» لِلْمُجَاوِزَةِ، أَي أَنَّ مَوْلَاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَيَّرَ طِيبَ غُنْصِرِهِ مُجَاوِزًا كُلَّ رَبِيبٍ، وَالْمُرَادُ بِالنِّدَاءِ فِي «يَا طِيبَ» التَّعْجُبُ، أَي يَا مُتَعَجِّبًا تَأْمَلُ طِيبَ مُفْتَتِحِ مِنْهُ وَمُخْتَتَمٍ بِهِ.

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الْأَوْسَطِ، وَابْنُ حَجَرٍ الْعَسْكَلَانِيُّ فِي الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ، وَابْنُ عَسَاكِرٍ فِي تَارِيخِهِ، بِسَنَدِهِمْ عَنْ سَيْنَا عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (خَرَجْتَ مِنْ نِكَاحٍ وَلَمْ أَخْرَجْ مِنْ سِفَاحٍ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي).

(٢) هُوَ رَأْسُ بَنِي هَاشِمٍ وَأَبُوهُمْ، وَاسْمُهُ عَمْرُو، وَلَقَّبَ بِهَاشِمٍ لِأَنَّهُ لَمَّا أَصَابَتْ مَكَّةَ سَنَةٌ شَدِيدَةٌ وَاشْتَدَّ بِأَهْلِهَا الْقَحْطُ وَالْجُوعُ، ارْتَحَلَ عَمْرُو إِلَى الشَّامِ فَاشْتَرَى الْخَبِزَ وَعَادَ بِهِ إِلَى قَوْمِهِ، فَأَمَرَ بِالْخَبِزِ فَهَشَمَ فِي جِفَانٍ، وَأَمَرَ بِالْإِبِلِ فَنَحَرَتْ وَطَهَى لِحْمَهَا، وَأَطْعَمَ أَهْلَ مَكَّةَ، فَسُمِيَ لِذَلِكَ هَاشِمًا.

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الْقَضَائِلِ، بَابُ فَضْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ عَلَيْهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ.

٦٠- يَوْمَ تَفْرَسَ فِيهِ الْفَرَسُ أَنَّهُمْ قَدْ أُنْذِرُوا بِحُلُولِ الْبُؤْسِ وَالنَّقَمِ

يَوْمَ أَي زَمَنٍ، وهو بَدَلٌ من «مَوْلَدِهِ»، أو خَيْرٌ مُبْتَدَأٌ مَخْذُوفٌ أَي «هُوَ»، أَي «مَوْلَدُهُ» -بِمَعْنَى زَمَنٍ وَلادَتِهِ- زَمَنٌ تَفْرَسَ فِيهِ الْفَرَسُ، وَهُمْ أَهْلُ مَمْلَكَةِ فَارِسَ، أَي عَلِمُوا بِالْفَرَسَةِ أَنَّهُمْ بِالضَّمِّ وَالْإِشْبَاعِ- قَدْ أُنْذِرُوا أَي أَعْلِمُوا بِحُلُولِ الْبُؤْسِ وَالنَّقَمِ أَي الشَّدَةِ وَالْعُقُوبَاتِ بِهِمْ.

وَحُلُولُهَا مِنْ «حَلَّ يَحِلُّ» -بِالْكَسْرِ- أَي وَجَبَ، أَوْ بِالضَّمِّ^(١) أَي نَزَلَ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ وَجَبَ أَوْ نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْبُؤْسُ وَالنَّقَمُ، حَيْثُ قَارَنَ وَلادَتَهُ مَا ذَكَرَهُ النَّاطِمُ بِقَوْلِهِ:

٦١- وَبَاتَ إِبْرَآنُ كِسْرَى وَهُوَ مُنْصَدِعٌ كَشَمَلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرِ مُلْتَمِعٍ

وَبَاتَ إِبْرَآنُ كِسْرَى -بِكَسْرِ الْكَافِ وَفَتْحِهَا- آخِرُ مُلُوكِ الْفَرَسِ، أَي صَارَ إِبْرَآنُهُ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي وَلِدَ طُلُوعَ فَجْرِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُنْصَدِعٌ أَي مُنْشَقٌّ، وَسَقَطَتْ مِنْهُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ شَرْفَةً، كَشَمَلِ أَي مَجْمَعِ عَدَدِ أَصْحَابِ كِسْرَى بَاتَ غَيْرِ مُلْتَمِعٍ، أَي مُجْتَمِعٍ.

و«الإِبْرَآنُ» و«الإِوَانُ» الصَّفَةُ الْعَظِيمَةُ كَالْأَرْجِ^(٢)، و«إِبْرَآنُ» اسْمٌ «بَاتَ»، و«كَشَمَلِ أَصْحَابِ كِسْرَى» خَبَرُهَا.

(١) أَي «حَلَّ يَحِلُّ».

(٢) الإِوَانُ وَالْإِبْرَآنُ هُوَ مَجْلِسٌ كَبِيرٌ عَلَى هَيْئَةِ ضَفَّةٍ وَاسِعَةٍ، لَهَا سَقْفٌ مَحْمُولٌ مِنَ الْأُمَامِ عَلَى عَقْدٍ، يَجْلِسُ فِيهَا كِبَارُ الْقَوْمِ، وَالْأَرْجُ: بِنَاءٌ مُسْتَطِيلٌ مَقْوَسُ السَّقْفِ.

٦٢- والنَّارُ خَامِدَةٌ الْأَنْفَاسِ مِنْ أَسْفٍ عَلَيْهِ، وَالنَّهْرُ سَاهِي الْعَيْنِ مِنْ سَدَمٍ

والنَّارُ التي يَعْبُدُونَهَا خَامِدَةٌ الْأَنْفَاسِ، أي سَاكِنةٌ لَا لَهَبَ لَهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ، مِنْ أَسْفٍ عَلَيْهِ، أي مِنْ أَجْلِ شِدَّةِ حُزْنٍ مِنْهُمْ عَلَى انْصِدَاعِ الْإِيوَانِ، أَوْ عَلَى شَمْلِهِمْ حَيْثُ تَشَتَّتْ، وَالنَّهْرُ الَّذِي بِهِ قِيَامُهُمْ سَاهِي الْعَيْنِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، أي سَاكِنٌ عَنِ الْجَرَيَانِ مِنْ أَجْلِ سَدَمٍ، أي حُزْنٍ مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَيْضاً.

و«النَّارُ» و«النَّهْرُ» مَغْطُوفَانِ عَلَى «إِيوَانٍ»، و«خَامِدَةٌ» و«سَاهِي» عَلَى «كَشْمَلٍ»، عَلَى لُغَةٍ مِنْ جَعَلَ إِعْرَابَ «سَاهِي» فِي جُمْلَةِ الْمَنْقُوصِ نَصْباً كإِعْرَابِهِ رَفْعاً وَجَرّاً، وَيَجُوزُ رَفْعُ كُلِّ مِنَ الْجَزَيْنِ فِيمَا ذَكَرَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَالْخَبَرِ، وَيَكُونُ كُلُّ مِنَ الْجُمْلَتَيْنِ حَالاً، أَوْ مَغْطُوفاً عَلَى «بَاتَ»، كَمَا فِي قَوْلِهِ:

٦٣- وَسَاءَ سَاوَةٌ أَنْ غَاضَتْ بُحَيْرُتُهَا وَرَدَّ وَارِدُهَا بِالْغَيْظِ حِينَ ظَمِيَ

وَسَاءَ سَاوَةٌ، وَهِيَ مَدِينَةٌ بَيْنَ هَمْدَانَ وَالرِّيِّ مِنْ مُدُنِهِمْ^(١)، أَي أَحْزَنَ أَهْلُهَا أَنْ غَاضَتْ بُحَيْرُتُهَا بِضَادٍ مُعْجَمَةٍ - أَي نَقَصَتْ، - بِضَادٍ مُهْمَلَةٍ - أَي غَارَتْ، وَالْمُرَادُ ذَهَبَ مَاءُ بُحَيْرَةٍ سَاوَةٍ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَهِيَ بُحَيْرَةٌ عَظِيمَةٌ طَوَّلَهَا سِتَّةُ أُمِّيَالٍ وَعَرَضُهَا كَذَلِكَ، فَتَضَعُفُهَا لِلتَّعْظِيمِ^(٢).

وَرَدَّ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَهُوَ وَارِدُهَا، أَي وَارِدُ بُحَيْرَةٍ سَاوَةٍ لِلِاسْتِسْقَاءِ مِنْ مَائِهَا، بِالْغَيْظِ أَي بِمَا يَغِيظُهُ أَي يُغْضِبُهُ، حِينَ ظَمِيَ أَي عَطِشَ وَلَمْ يَجِدْ فِيهَا مَاءً. وَالْبَاءُ لِلْمَصَاحَبَةِ، وَهِيَ وَ«حِينَ» مُتَعَلِّقَانِ بِ«رَدَّ»، وَيَاءُ «ظَمِيَ» مُتَعَلِّقَةٌ عَنْ هَمْزَةٍ.

(١) تقع بحيرة ساوة في محافظة المثنى جنوب العراق، وكانت ضمن مملكة فارس آنذاك.

(٢) ترجع معاني التصغير في الغالب إلى التقليل والتحقير، لكنه قد يستخدم بغرض التعظيم أيضاً كما في قولهم: «فلان دويهيّة» تصغير «داهية».

٦٤- كَأَنَّ النَّارَ مَا بِالماءِ مِنْ بَلَلٍ حُزْنًا، وبِالماءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمٍ

كَأَنَّ النَّارَ مَا بِالماءِ مِنْ بَلَلٍ، لِيَبْرِدَهَا حُزْنًا، وبِالماءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمٍ
أَيِ التَّهَابِ، لِحَرَقَتِهِ وَذَهَابِهِ فِي تَخَوُّمٍ^(١) الْأَرْضِ حُزْنًا أَيْضًا.

و«ما» فِي الْمَوْضِعَيْنِ مَوْصُولَةٌ، وَ«حُزْنًا» حَالٌ مِنَ «النَّارِ»، أَيِ حَالَةِ كَوْنِهَا ذَاتَ
حُزْنٍ، وَ«مِنْ» فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلْبَيَانِ.

٦٥- وَالْجَنُّ تَهْتِفُ، وَالْأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ وَالْحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنَى وَمِنْ كَلِمٍ

وَالْجَنُّ تَهْتِفُ أَيِ تَتَكَلَّمُ^(٢) - مِنْ حَيْثُ لَا تَرَى - بِوِلَادَتِهِ لَيْلَتَهَا، وَالْأَنْوَارُ فِيهَا
سَاطِعَةٌ أَيِ ظَاهِرَةٌ مُرْتَفِعَةٌ أَضَاءَ لَهَا قُصُورُ الشَّامِ^(٣)، وَ«الْتَهْفُ» لُغَةُ الصَّوْتِ،
وَقِيلَ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ، وَالْحَقُّ وَهُوَ أَمْرُ النَّبِيِّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنَى لِكَلَامِ قَارِنٍ
وِلَادَتِهِ، وَمِنْ كَلِمٍ أَيِ كَلَامٍ بِهَا.

(١) جَمْعُ «تَخَوُّمٍ» وَهُوَ الْحَدُّ الْفَاصِلُ بَيْنَ أَرْضَيْنِ.

(٢) تَتَكَلَّمُ حَقِيقَةٌ وَلَيْسَ مَجَازًا، كَمَا ذَكَرَهُ الْكَثِيرُ مِنْ كُتَّابِ السِّيَرِ، وَفِي شَرْحِهِ عَلَى الْمَوَاهِبِ اللَّدْنِيَةِ
بِالْمُنْحَ الْمُحَمَّدِيَةِ يَقُولُ الْإِمَامُ الزَّرْقَانِيُّ فِي مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنْ عَجَائِبِ وَلادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«... يَعْنِي بِذَلِكَ مَا سَمِعَ مِنَ الْجِنِّ وَغَيْرِهِمْ مِنْ بَعْدِ وَلادته إِلَى مَبْعَثِهِ مِنْ تَبْشِيرِهِمْ بِهِ وَنَعِيمِهِمُ الْكَفَرِ
وَإِنذَارِهِمْ بِهَلَاكِهِ، يَهْتَفُونَ بِذَلِكَ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ، أَيِ يَنَادُونَ بِهِ».

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا مَا أوردَهُ الْبَاجُورِيُّ فِي شَرْحِهِ، أَنَّهُ حِينَ وَلَدَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَتَفَ هَاتِفٌ عَلَى
الْحُجُونِ، وَهُوَ جَبَلٌ بِالمَعْلَةِ بِمَكَّةَ، وَهُوَ يَنْشُدُ وَيَقُولُ:

فَأَقْسَمُ مَا أَنْتُمْ مِنَ النَّاسِ أَنْجَبْتُ وَلَا وَلَدْتُ أَنْتُمْ مِنَ النَّاسِ وَاحِدَهُ

كَمَا وَلَدْتُ زَهْرِيَّةَ ذَاتِ مَفْخَرٍ مَجْنِبَةُ لُؤْمِ الْقَبَائِلِ مَاجِدَهُ

(٣) رَوَى ابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ الْكُبْرَى أَنَّ أُمَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: (لَمَّا وَلَدْتُهُ خَرَجَ مِنِّي
نُورٌ أَضَاءَ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ ...).

٦٦- عَمُوا وَصَمُّوا، فَإِعْلَانُ الْبَشَائِرِ لَمْ يُسْمَعْ، وَبَارِقَةُ الْإِنذارِ لَمْ تَشْمَ

عَمُوا وَصَمُّوا -بينائهما للفاعل أو للمفعول- أي الكُفَّارُ عن ذلك، حيث جحدوا نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، **إِعْلَانُ** أي فإظهارُ البَشَائِرِ المذكورة به صلى الله عليه وسلم **لَمْ يُسْمَعْ** لهم سماع قبول، وقول بعضهم «لم تسمع» بالتاء الفوقية -فأنت ضمير المضاف فيه نظراً للمُضَاف إليه- صحيح لكن لا حاجة إليه، و**بَارِقَةُ** أي لوامع الإنذار به **لَمْ تَشْمَ** لهم -بالمعجمة- أي لم ينظروها لعدم التفاتهم إليها، يُقال: «شام فلان البرق» نظر إليه.

٦٧- مِنْ بَعْدِ مَا أَخْبَرَ الْأَقْوَامَ كَاهِنُهُمْ بِأَنَّ دِينَهُمُ الْمُعْجُجَ لَمْ يَقَمْ

من بعد، تتازعه «عموا» و«صمُّوا»، ما -مضدريّة- أَخْبَرَ الْأَقْوَامَ الذين عموا و**صَمُّوا كَاهِنُهُمْ**، أي كُلُّ كَاهِنٍ^(١) لهم، لما علموه بأنَّ دِينَهُمُ الذي هم عليه **الْمُعْجُجُ**، لم يَقَمْ -بالبناء للمفعول أو للفاعل- أي لا قيام له مع وجود النبي صلى الله عليه وسلم، بل يَنْكَسِرُ ويضمحل.

٦٨- وَبَعْدَ مَا عَايَنُوا فِي الْأَفْقِ مِنْ شُهَبٍ مُنْقَضَةٍ وَفَقَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صَمٍ

وَأَخْبَرُوا بِذَلِكَ أَيْضاً بَعْدَ مَا عَايَنُوا أي شَاهَدُوا فِي الْأَفْقِ -بإسكان الفاء لغة في ضمها- أي السماء، مِنْ شُهَبٍ، جمع «شهاب» وهو شُعْلَةٌ نارٍ ساطِعَةٍ

(١) من «كهن يَكهن كهانة» أي أخبر بالغيب، فالكاهن هو من كان له تابع من الجن يخبره بأمر السماء، لاستراقه السمع، لكن يزيد على الكلمة الحق مائة كذبة.

مُنْقَضَةٌ أَي نَازِلَةٌ عَلَى الشَّيَاطِينِ الْمُسْتَرْقِينَ لِلسَّمْعِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ^(١)،
لَيْلَةَ وِلَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفَقِ^(٢) مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صَنْمٍ أَيْ جِنْسِ
الصَّنَمِ فِي سُقُوطِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ.

و«بَعْدَ» مَجْرُورٌ عَطْفًا عَلَى «بَعْدَ» قَبْلُهُ^(٣)، أَوْ مَنْصُوبٌ عَطْفًا عَلَى مَجْلِهِ، وَ«مَا»
فِي الْمَوْضِعَيْنِ مَوْصُولَةٌ، أَوْ نَكْرَةٌ مَوْصُوفَةٌ، وَ«مِنْ» بَيَانٌ لَهَا، فَيَمْتَنِعُ كَوْنُ «مَا»
مُضَرَّةً.

وَفِي إِبْخَارِهِمْ بَأَنَّ دِينَهُمْ لَمْ يَقُمْ -بَعْدَ عِلْمِهِمْ مِنْ كُفَاهِهِمْ بِصِحَّةِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَعْدَ مُعَايِنَتِهِمْ مَا ذَكَرَ- غَايَةُ التَّقْبِيحِ عَلَيْهِمْ.

٦٩- حَتَّى غَدَا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ مُنْهَزِمٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ، يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزِمٍ

وَلَمْ تَزَلِ الشُّهُبُ تَنْقُضُ عَلَى الشَّيَاطِينِ، حَتَّى غَدَا -بَيْنَ مُعْجَمَةٍ- أَيْ
ذَهَبَ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ وَهِيَ السَّمَاءُ، مُنْهَزِمٌ فَاعِلٌ «غَدَا»، وَوَصَفَهُ بِقَوْلِهِ: مِنْ
الشَّيَاطِينِ، يَقْفُو أَيْ يَتَّبِعُ إِثْرَ مُنْهَزِمٍ مِنْهُمْ، وَهَلُمَّ جَرًّا^(٤) لِيَتَّابِعَ الشُّهُبُ الْمُنْقَضَةَ
عَلَيْهِمْ، وَلَمْ تَعْهَدْ الْكُفَّارُ إِذْ ذَاكَ مِثْلَ ذَلِكَ.

(١) يَقُولُ الْبَاجُورِيُّ فِي شَرْحِهِ: وَتِلْكَ أَنَّ الشَّيَاطِينِ كَانُوا يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ مِنَ السَّمَاوَاتِ كُلِّهَا، فَلَمَّا وَلَدَ
عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَنَعُوا مِنْ ثَلَاثِ سَمَاوَاتٍ بِسُقُوطِ الشُّهُبِ عَلَيْهِمْ، وَلَمَّا وَلَدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْدٌ
فِي حِرَاسَةِ السَّمَاءِ، فَمَنَعُوا مِنْ سَائِرِهَا بِسُقُوطِ الشُّهُبِ عَلَيْهِمْ بِكَثْرَةٍ، لَكِنْ كَانُوا يَقْعُدُونَ فِي مَقَاعِدَ قَرِيبَةٍ
مِنَ السَّمَاءِ بِحَيْثُ يَسْمَعُونَ صَرِيرَ الْأَقْلَامِ، أَيْ صَوْتَ أَقْلَامِ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي تَكْتُبُ مَا يَقَعُ فِي الْعَالَمِ،
وَلَمَّا بَعَثَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنَعُوا مِنْ ذَلِكَ بِالشُّهُبِ أَيْضًا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ ﴿وَأَنَّا
كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رُضْدًا﴾ [سُورَةُ الْجِنِّ - آيَةُ ٩].

(٢) أَيْ مِثْلُ، وَالْمَقْصُودُ تَشْبِيهُ سُقُوطِ الشُّهُبِ مِنَ السَّمَاءِ بِسُقُوطِ أَصْنَامِ الْأَرْضِ وَانْتِكَاسِهَا لَيْلَةَ مَوْلِدِ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

(٣) أَيْ فِي الْبَيْتِ الَّذِي قَبْلَهُ.

(٤) تَعْبِيرٌ يَقَالُ لِاسْتِدْمَاةِ الْأَمْرِ وَاتِّصَالِهِ.

٧٠- كَانَهُمْ -هَرَبًا- أَبْطَالُ أَبْرَهَةَ أَوْ عَسْكَرُ بِالْحَصَى مِنْ رَاحَتَيْهِ رُمِيَ

كَانَهُمْ أَيِ الشَّيَاطِينِ، هَرَبًا أَيِ فِي حَالِ هَرَبِهِمْ، أَيِ فِرَارِهِمْ مِنَ الشَّهْبِ،
أَبْطَالُ أَيِ شُجْعَانُ أَبْرَهَةَ -بَصْرَتُهُ لِلزَّن- وَهُوَ -يَفْتَحُ الْهَمْزَةَ وَالرَّاءَ- مَلِكُ الْيَمَنِ،
بَنَى بَصْنَعَاءَ كَنِيسَةً لِيَصْرِفَ إِلَيْهَا الْحَاجُّ، فَأَخَذَتْ رَجُلًا مِنْ كِنَانَتِهِ فِيهَا، وَلَطَخَ
قَبْلَتَهَا بِالْعَذْرَةِ^(١)، فَحَلَفَ أَبْرَهَةُ لِيَهْدِمَنَّ الْكَعْبَةَ، فَجَاءَ بِجَيْشِهِ وَفِيلٍ عَظِيمٍ مَعَ
أَفْيَالٍ إِلَى مَكَّةَ، فَحِينَ تَهَيَّأُوا لِلدُّخُولِ وَالْهَدْمِ غُشِيَ عَلَيْهِمْ وَوَلُّوا هَارِبِينَ، وَرَمَوْا
بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجِيلٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾^(٢)
إِلَى آخِرِهَا.

وَعَطَفَ عَلَى «أَبْطَالٍ» قَوْلُهُ: أَوْ عَسْكَرُ بِالْحَصَى مِنْ رَاحَتَيْهِ، أَيِ بَاطِنِي
كَفَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُمِيَ، أَيِ الْعَسْكَرُ، فَهَرَبَ مِنْ رَمَى النَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَلِكَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ^(٣) وَفِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ^(٤). وَ«بِالْحَصَى»، وَ«مِنْ
رَاحَتَيْهِ» مُتَعَلِّقَانِ بِ «رُمِيَ»، وَالْجُمْلَةُ صِفَةٌ لـ «عَسْكَرُ»، وَحَاصِلُ الْبَيْتِ أَنَّهُ شَبَّهَ
الشَّيَاطِينَ فِي هَرَبِهِمْ وَتَبَدُّدِ شَمْلِهِمْ، بِأَبْطَالِ أَبْرَهَةَ أَوْ بِالْعَسْكَرِ الْمَذْكُورِ.

(١) أَيِ الْغَانِطِ.

(٢) سُورَةُ الْفِيلِ - الْآيَةُ ١

(٣) أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ وَابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِمَا بِسَنَدَيْهِمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَ:
رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ، يَعْنِي: يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنْ تَهْلِكُ هَذِهِ الْعَصَابَةُ، فَلَنْ
تَعْبُدَ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: خَذْ قَبِيضَةً مِنَ التُّرَابِ، فَارْمَ بِهَا فِي وَجُوهِهِمْ، فَأَخَذَ قَبِيضَةً مِنَ
التُّرَابِ، فَرَمَى بِهَا فِي وَجُوهِهِمْ، فَمَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَحَدٌ إِلَّا أَصَابَ عَيْنِيهِ وَمَنْخَرِيهِ وَفَمَهُ تَرَابٌ مِنْ تِلْكَ
الْقَبِيضَةِ، فَوَلُّوا مُدْبِرِينَ.

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسَّيْرِ، بَابُ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ، بِسَنَدِهِ عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ
عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَصِيَّاتٍ فَرَمَى بِهِنَّ وَجُوهَ الْكُفَّارِ، ثُمَّ قَالَ انْهَزِمُوا وَرَبُّ مُحَمَّدٍ، قَالَ فَذَهَبَتْ
أَنْظَرُ فَإِذَا الْقِتَالُ عَلَى هَيْئَتِهِ فِيمَا أَرَى، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَاهُمْ بِحَصِيَّاتِهِ فَمَا زِلْتُ أَرَى حَذْمَهُ
كَلِيلًا وَأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا.

٧١- نَبَذَا بِهِ بَعْدَ تَسْبِيحِ بَيْطَنِيهِمَا — نَبَذَ الْمُسَبِّحُ مِنْ أَحْشَاءِ مُلْتَقِمٍ

نَبَذَا بِهِ أَي رَمَيَا بِالْحَصَى، بَعْدَ تَسْبِيحِ مَنْهُ بَيْطَنِيهِمَا أَي فِي بَاطِنِ الرَّاحَتَيْنِ، نَبَذَ الْمُسَبِّحُ مِنْ أَحْشَاءِ حَوْبٍ مُلْتَقِمٍ لَهُ، وَهُوَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالنَّفَمَةُ الْخَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾^(١) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿سَقِيمٌ﴾^(٢)، وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

وَالْقَصْدُ تَشْبِيهُ نَبَذِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَصَى الْمُسَبِّحِ الْعَسْكَرَ الْهَارِبَ مُنْكَسِرًا، يَنْبِذُ اللَّهُ تَعَالَى يُونُسَ الْمُسَبِّحَ مِنْ بَطْنِ الْحَوْبِ حَيًّا، فِي أَنَّ كِلَاهُمَا خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، وَكَأَنَّ النَّاطِمَ وَقَفَ عَلَى تَسْبِيحِ الْحَصَى الْمَرْمِيِّ، أَوْ قَصَدَ التَّسْبِيحَ الثَّابِتَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ، وَعَلَيْهِ فَقَوْلُهُ «بَعْدَ تَسْبِيحٍ» أَي مِنْ جِنْسِ الْحَصَى فِي مَحَلٍّ آخَرَ.

وقَوْلُهُ: «نَبَذَا» مُصَدَّرٌ مَنْصُوبٌ بِـ «رُمِي^(٤)» كـ «جَلَسْتُ قُعُودًا»، أَوْ بِمَخْذُوفٍ أَي «نَبَذَ نَبَذًا»، فَيَكُونُ بَدَلًا مِنَ اللَّفْظِ بِفَعْلِهِ، وَ«الْأَحْشَاءُ» جَمْعُ «حَشَا» وَهُوَ مَا انْضَمَّتْ عَلَيْهِ الصُّلُوعُ، وَ«مِنْ» مُتَعَلِّقَةٌ بِـ «نَبَذَ الْمُسَبِّحُ».

(١) سورة الصافات - الآية ١٤٢

(٢) أي إلى نهاية الآية ١٤٥ من سورة الصافات: ﴿قُلُوبًا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ • لَلْبَثِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ • فَتَنَذَّنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾

(٣) سورة الأنبياء - من الآية ٨٧

(٤) في قوله «من راحتيه رُمي» في البيت قبل السابق (رقم ٧٠).

الفصل الخامس: في معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم

٧٢- جَاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الْأَشْجَارُ سَاجِدَةً تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلَا قَدَمٍ

جَاءَتْ لِدَعْوَتِهِ أَي نِدَائِهِ، الْأَشْجَارُ سَاجِدَةً أَي خَاضِعَةً، تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلَا قَدَمٍ يُعِينُهَا عَلَى الْمَشْيِ^(١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾^(٢)، وَالشَّجَرُ مَا لَهُ سَاقٌ، وَالنَّجْمُ مَا لَا سَاقَ لَهُ مِنَ النَّبَاتِ. وَ«بِلَا قَدَمٍ» مُتَعَلِّقٌ بِ«تَمْشِي»، أَوْ صِفَةً لـ «سَاقٍ»، وَبِأَوِّهِ لِلْمُضَاحَبَةِ.

٧٣- كَأَنَّمَا سَطَرَتْ سَطْرًا لِمَا كَتَبَتْ فُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الْخَطِّ بِاللَّقَمِ

كَأَنَّمَا حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ «تَمْشِي»، وَ«مَا» كَافَّةٌ^(٣)، سَطَرَتْ أَي خَطَّتْ الْأَشْجَارُ سَطْرًا لِمَا، أَي لِلَّذِي كَتَبَتْ فُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الْخَطِّ بِاللَّقَمِ -يَفْتَحُ اللَّامَ وَالْقَافَ- أَي وَسَطِ الطَّرِيقِ.

(١) وقد عقد القاضي عياض في كتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم» فصلاً عنوانه: «في كلام الشجر وشهادتها له بالنبوة وإجابتها لدعوته» ضمنه ما جاء في ذلك من أحاديث.

(٢) سورة الرحمن - الآية ٦

(٣) أي تكف «إن وأخواتها» عن العمل وتجعلها مهياة للدخول على الفعل.

و«من» بيان لـ «ما»، وإضافة «بديع» للبيان، وهي من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي الخطُّ المُنْبَدِع، لكونه لم يُعْهَدْ مِثْلُهُ لِمِثْلِ الأشجار، شبه آثارُ فُرُوعِها في الأرضِ المُفِيدَةِ لِلْخِيَارِ بِالْخَطِّ الدالِّ على اللَّفْظِ الْمُفِيدِ لِلْمَعْنَى.

رُوي أَنَّ أَعْرَابِيَا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةً، فَقَالَ لَهُ: قُلْ لِّتِلْكَ الشَّجَرَةِ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَدْعُوكِ، فَمَالَتْ عَنْ يَمِينِهَا وَشِمَالِهَا وَبَيْنَ يَدَيْهَا وَخَلْفِهَا، فَقَطَعَتْ عُرُوقَهَا، ثُمَّ جَاءَتْ تَجْرُ عُرُوقَهَا، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: فَمَرُّهَا فَلْتَرْجِعْ إِلَى مَنْبَتِهَا، فَأَمَرَهَا فَرَجَعَتْ، وَذَلَّتْ عُرُوقَهَا فِي مَنْبَتِهَا، فَاسْتَوَتْ فِيهِ^(١).

و«سَطَرًا» مفعول به لـ «سَطَرْتُ» إن كان بمعنى المَسْطُورِ، وإلا فمَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لَهُ، وهو مفعول مطلق، وعليه يُقْرَأُ «سَطَرْتُ» مُخَفَّفًا، إذ مُضَرَّةٌ مُشَدَّدَةٌ «سَطَطِير» لا «سَطَر»، و«لَمَّا» مُتَعَلِّقٌ بـ «سَطَرْتُ».

٧٤- مِثْلُ الْغَمَامَةِ أُنَى سَارَ سَائِرَةً تَقِيهِ حَرٌّ وَطِيسٌ لِلْهَجِيرِ حَمِي

مِثْلُ بِالنَّضْبِ حَالٌ ثَانِيَةٌ، وبِالرَّفْعِ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَخْدُوفٌ، أي مجيءُ الأشجارِ لِدَعْوَتِهِ مِثْلُ الْغَمَامَةِ، أُنَى أي مَتَى أَوْ أَيْنَ سَارَ أي مِثْلُ الْغَمَامَةِ، و«أُنَى سَارَ» ظَرْفٌ لِقَوْلِهِ سَائِرَةً -بِالنَّضْبِ- حَالٌ مِنْ «الْغَمَامَةِ».

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة، ومما ورد أيضا في إجابة الأشجار لدعوته ما رواه الدارمي في سننه بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس حزين، وقد تخضب بالدم من فعل أهل مكة من قريش، فقال جبريل عليه السلام: يا رسول الله، هل تحب أن أريك آية؟ قال: نعم، فنظر إلى شجرة من ورائه، فقال: ادع بها، فدعا بها، فجاءت وقامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع، فأمرها فرجعت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسبي حسبي.

تَقِيهِ الْغَمَامَةُ حَرَّ وَطِيسٍ أَيْ تَتَوَرَّأُ^(١)، لِلْهَجِيرِ أَيْ نِصْفِ النَّهَارِ الْحَارِّ، حَمِي صِفَةً لـ «وَطِيسٍ»، يُقَالُ «حَمِيَ الْوَطِيسُ» إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ، وَالْمَعْنَى: تَقِيهِ حَرَّ الشَّمْسِ فِي الْهَجِيرِ^(٢). قَالَ بَعْضُهُمْ: وَلَا تَخْلُو أَلْفَاظُ الْبَيْتِ مِنْ تَعْقِيدٍ، وَلَسْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ ثُبُوتِ هَذَا الْبَيْتِ فِي الرَّوَايَةِ^(٣).

(١) التَّوَرُّعُ هُوَ الْفَرْقُ يَخْبِزُ فِيهِ، وَالْوَطِيسُ: حَفِيرَةٌ يُوْقَدُ فِيهَا، وَالْمُرَادُ هُنَا الْحَرَارَةُ الْمُحَرَّقَةُ.

(٢) يُشِيرُ هَذَا الْبَيْتُ إِلَى حَادِثَةٍ تَظْلِيلِ الْغَمَامَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالتِّي أوردَهَا ابن سعد في الطبقات الكبرى كما يلي: خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المرة الأولى وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فلما نزل الراكب بصرى من الشام وبها راهب له بحيرا في صومعة له ... حتى إذا كان ذلك العام ونزلوا منزلا قريبا من صومعته قد كانوا ينزلونه قبل ذلك كلما مروا، فصنع لهم طعاما ثم دعاهم، وإنما حملته على دعائهم أنه رآهم حين طلوعوا وغمامة تظل رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم حتى نزلوا تحت الشجرة، ثم نظر إلى تلك الغمامة أظلمت تلك الشجرة واخضلت أغصان الشجرة على النبي صلى الله عليه وسلم حين استظل تحتها، فلما رأى بحيرا ذلك نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فأتي به، وأرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش وأنا أحب أن تحضروه كلكم ولا تخفلوا منكم صغيرا ولا كبيرا حرا ولا عبدا فإن هذا شيء تكرموني به، فقال رجل: إن لك لسانا يا بحيرا ما كنت تصنع بنا هذا فما شأنك اليوم، قال: فإني أحببت أن أكرمكم ولكم حق، فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحدائنه، ليس في القوم أصغر منه في رجالهم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرا إلى القوم فلم ير الصفة التي يعرف ويحدها عنده، وجعل ينظر ولا يرى الغمامة على أحد من القوم ويراها متخلفة على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال بحيرا: يا معشر قريش لا يتخلف منكم أحد عن طعمامي، قالوا: ما يتخلف أحد إلا غلام هو أحدث القوم سنا في رجالهم، فقال: ادعوه فليحضر طعمامي فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أني أراه من أنفسكم ... فقال الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف: والله إن كان بنا للوم أن يتخلف ابن عبد المطلب من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأقبل به حتى أجلسه على الطعام، والغمامة تسير على رأسه، وجعل بحيرا يلحظه لحظا شديدا، وينظر إلى أشياء في جسده قد كان يجدها عنده من صفته، فلما تفرقوا عن طعامهم قام إليه الراهب فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى ألا أخبرتني عما أسألك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تسألني باللات والعزى فإني ما أبغضت شيئا بغضهما، قال: فبإله ألا أخبرتني عما أسألك عنه، قال: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله حتى نومه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره فيوافق ذلك ما عنده، ثم جعل ينظر بين عينيه، ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضع الصفة التي عنده، قال: فقبِلَ موضع الخاتم، وقالت قريش: إن لمحمد عند هذا الراهب لقدر، وجعل أبو طالب لما يرى من الراهب يخاف على ابن أخيه، فقال الراهب لأبي طالب: ما هذا الغلام منك، قال أبو طالب: ابني، قال: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا، قال: فابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه حبلى به، قال: فما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريبا، قال: صدقت أرجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، ... فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، نجده في كتبنا وما رويناه عن آبائنا، ... ورجع به أبو طالب فما خرج به سفرا بعد ذلك خوفا عليه.

(٣) تشير المخطوطات الكثيرة المتوافرة للبردة إلى ثبوت هذا البيت في رواية القصيدة.

٧٥- أَقْسَمْتُ بِالْقَمَرِ الْمُنْشَقِّ إِنَّ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْرُورَةَ الْقَسَمِ

أَقْسَمْتُ أَي حَلَفْتُ بِالْقَمَرِ الْمُنْشَقِّ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةً، وَإِنْ زَعَمَ الْكُفَّارُ أَنَّهُ سِحْرٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾^(١)، وَجَوَابُ الْقَسَمِ (إِنَّ لَهُ) أَي لِلْقَمَرِ الْمُنْشَقِّ (مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةً) أَي شَبَهَا بِقَلْبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي انْشِقَاقِ كُلِّ مِنْهُمَا مَرَّتَيْنِ^(٢)، (مَبْرُورَةَ الْقَسَمِ) صِفَةً «يَمِينًا»^(٣)، دَلَّ عَلَيْهَا «أَقْسَمْتُ».

وَالْقَسَمُ بِالْقَمَرِ جَائِزٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾^(٤)، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ أَقْسَمَ بِمُضَافٍ مَخْذُوفٍ، أَي «وَرَبِّ الْقَمَرِ»^(٥).

(١) سورة القمر - الآيتان ١ و ٢

(٢) تَكَرَّرَتْ حَادِثَةُ شِقِّ الصِّدْرِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا هُوَ ثَابِتٌ فِي الرِّوَايَاتِ، وَكَانَتْ الْمَرَّةَ الْأُولَى وَهُوَ صَغِيرٌ عِنْدَ مَرْضَعَتِهِ حَلِيمَةَ، لِيَنْشَأَ مَبْرُورًا عَمَّا عَلَيْهِ الصَّبِيَّانِ مِنْ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَالشَّيْطَانِ، وَشَقٌّ ثَانِيَةٌ عِنْدَ بُلُوغِهِ عَشْرَ سَنِينَ، لِيَدْخُلَ سِنَ الْمَرَاهِقَةِ وَهُوَ عَلَى أَكْمَلِ الْأَحْوَالِ، وَعِنْدَ مَبْعَثِهِ لِيَتَلَقَّى الْوَحْيَ عَلَى أَتَمِّ حَالَاتِ الْكَمَالِ، ثُمَّ فِي لَيْلَةِ الْمَعَاجِزِ، وَقَدْ نَظَّمَهَا الْعَلَامَةُ الْأَجْهَرِي فَقَالَ: وَشَقٌّ صَدْرُ الْمُصْطَفَى وَهُوَ فِي دَارِ بَنِي سَعْدِ بِغَيْرِ مُدْبِئَةٍ كَشَفَهُ وَهُوَ ابْنُ عَشْرٍ، ثُمَّ فِي لَيْلَةِ مَعَاجِزِ، وَعِنْدَ الْبَعْثَةِ

(٣) أَي صِفَةً لِكَلِمَةٍ مُقَدَّرَةٍ هِيَ كَلِمَةُ «يَمِينًا» دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُهُ «أَقْسَمْتُ».

(٤) سورة الانشقاق - الآية ١٨

(٥) وَمَا وَرَدَ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْحَلْفِ بِغَيْرِ اللَّهِ، مُقَيَّدٌ بِمَا إِذَا كَانَ الْحَالِفُ مُعْتَقِدًا فِي الْمَحْلُوفِ بِهِ الْأَلْهَوِيَّةَ، وَالِدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ حَلْفُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -لَفْظًا- بِغَيْرِ اللَّهِ، فِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ مِنْ صَحِيحِهِ (أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ). وَفِي شَرْحِهِ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ يَقُولُ الْإِمَامُ النَّوَوِيُّ: [قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ) لَيْسَ هُوَ حَلْفًا، إِنَّمَا هُوَ كَلِمَةٌ جَرَتْ عَادَةُ الْعَرَبِ أَنْ تَدْخُلَهَا فِي كَلَامِهَا، غَيْرَ قَاصِدَةٍ بِهَا حَقِيقَةَ الْحَلْفِ، وَالنَّهْيُ إِنَّمَا وَرَدَ فِيمَنْ قَصَدَ حَقِيقَةَ الْحَلْفِ لَمَّا فِيهِ مِنْ إِعْظَامِ الْمَحْلُوفِ بِهِ وَمُضَاهَاةٍ بِهِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى]. وَجَاءَ فِي عَوْنِ الْمَعْبُودِ شَرْحُ سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ: [قَالَ الْعَيْنِيُّ: وَالْحِكْمَةُ فِي النَّهْيِ عَنِ الْحَلْفِ بِالْأَبَاءِ أَنَّهُ يَقْتَضِي تَعْظِيمَ الْمَحْلُوفِ بِهِ، وَحَقِيقَةَ الْعِظَمَةِ مُخْتَصَةً بِاللَّهِ جَلَّتْ عِظَمَتُهُ فَلَا يَضَاهِي بِهِ غَيْرُهُ، وَهَكَذَا حُكْمُ غَيْرِ الْأَبَاءِ مِنْ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ. وَمَا ثَبِتَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: أَفْلَحَ وَأَبِيهِ فَهِيَ كَلِمَةٌ تَجْرِي عَلَى اللِّسَانِ لَا يَقْصِدُ بِهَا الْيَمِينَ].

وَمِثْلُهُ الْحَلْفُ بِالنَّبِيِّ وَالْمُصْحَفِ وَالْكَعْبَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ دُونَ اعْتِقَادِ الْوَهْمَةِ فِي الْمَحْلُوفِ بِهِ، فَيَنْبَغِي التَّنْبِيهُ إِلَى أَنَّهُ حِينَ صُدِّرَ أَي لَفْظٌ مِنْ أَيِّ مُوَحَّدٍ، يَنْبَغِي أَنْ يَفْهَمَ فِي ضَوْءِ عَقِيدَتِهِ، تَغْلِيظًا لِحَسَنِ الظَّنِّ بِالْمُسْلِمِ، الَّذِي لَا يَجُوزُ شَرْعًا إِسَاءَةُ الظَّنِّ بِهِ.

٧٦- وَمَا حَوَى الْغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمٍ وَكُلُّ طَرَفٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْهُ عَمِي

وما منصوب بمقدّر، أي «اذكر»، أو مجرور عطفاً على «القمر»، وجوابه مقدّر
مما قبله، و«ما» بمعنى «من»، أي واذكر من، أو وأقسمت بمن حوى أي جمعه
الغار من خيرٍ ومن كرمٍ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم والصديق رضي
الله تعالى عنه، ووصفهما بما هو من شأنهما، وجوّز بغضه إبقاء «ما» على
معناها، وحمل الخير والكرم على صفات النبي صلى الله عليه وسلم والصديق
رضي الله تعالى عنه، أي وما جمعه الغار من الخير والكرم الصادر من النبي
صلى الله عليه وسلم والصديق^(١).

والغار نُقِبَ في جبلٍ ثَوْرٍ بِأَسْفَلِ مَكَّةَ، وَلَبِثَا فِيهِ حِينَ أَرَادَا الْهَجْرَةَ ثَلَاثَ
لَيَالٍ مُخْتَفَيْنِ مِنَ الْكُفَّارِ، حَتَّى انْقَطَعَ طَلِبُهُمْ لَهُمَا، وَقَدْ جَاءُوا حَوْلَ الْغَارِ
يَنْظُرُونَ، فَأَعْمَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، كَمَا ذَكَرَهُ النَّاطِمُ بِقَوْلِهِ: وَكُلُّ طَرَفٍ أَيْ بَصَرٍ مِنْ
الْكُفَّارِ عَنْهُ، أَيْ عَنِ الْمَحْوِيِّ عَمِي. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
نَظَرْتُ إِلَى أَعْدَائِهِمْ فَوْقَ رُؤُوسِنَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى
قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا، فَقَالَ: (مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ إِلَهُ تَالِثُهُمَا)^(٢).

وَجُمْلَةُ «وَكُلُّ طَرَفٍ...» إِلَى آخِرِهِ حَالٌ مِنَ «مَا»، وَ«عَمِي» يَخْتَمِلُ الْفِعْلَ وَالْإِسْمَ،
وَسَكَنَ الْيَاءُ عَلَى الْأَوَّلِ لِلْوَقْفِ، وَرَدَّهَا عَلَى الثَّانِي لَهُ أَيْضاً عَلَى لُغَةٍ.

(١) جاء في شرح الباجوري: والمراد بالخير الأخلاق الحميدة، وبالكرم الجود، فهما متغايران تغاير
الأعم والأخص، وكل منهما لكل من النبي صلى الله عليه وسلم ومن أبي بكر، ويحتمل أن الأول
للنبي صلى الله عليه وسلم، والثاني لأبي بكر، وعلى هذا فإنما خصه بالكرم لأنه أثر رسول الله
صلى الله عليه وسلم بنفسه وماله.

(٢) رواه الشيخان: البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة براءة، باب قوله (ثاني اثنين إذ هما
في الغار)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل
أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

٧٧- فالصُّدُقُ فِي الْغَارِ وَالصَّدِيقُ لَمْ يَرِمَا وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرِمٍ

فَالصُّدُقُ أَيِ النَّبِيِّ مُبَالَغَةً، أَوْ هُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، أَيِ فِ «ذُو الصَّنِقِ» وَهُوَ فِي الْغَارِ، وَالصَّدِيقُ أَيِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، وَهُوَ فِيهِ، لَمْ يَرِمَا -بِكُسْرِ الرَّاءِ- أَيِ لَمْ يَبْزَحْهَا، يُقَالُ: لَا أَرَيْتُمْ مَكَانَهُ، أَيِ لَا أُنْبِزْ. وَأَصْلُ «يَرِمَا» يَزِيمَا، بَيَاءٌ بَعْدَ الرَّاءِ، حُذِفَتْ تَبَعًا لِحَذْفِهَا فِي إِسْنَادِهِ إِلَى الْمُفْرَدِ، لِاتِّبَاعِ السَّاكِنِينَ، وَالْمَعْرُوفِ فِي مِثْلِهِ إِبْثَابُ الْيَاءِ، وَزَانَهُ قَوْلُهُ فِي التَّنْزِيلِ ﴿فَأَسْتَقِيمَا﴾^(١).

(وَهُمْ) أَيِ الْكُفَّارُ، يَقُولُونَ مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرِمٍ -بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكُسْرِ الرَّاءِ- أَيِ أَحَدٍ، نَظَرًا إِلَى حُومِ الْحَمَامِ حَوْلَ الْغَارِ، وَنَسَجِ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى فَمِهِ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ النَّاطِمُ بِقَوْلِهِ:

٧٨- ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ لَمْ تَنْسِجْ وَلَمْ تَحْمِ

ظَنُّوا أَنَّ الْحَمَامَ، وَظَنُّوا أَنَّ الْعَنْكَبُوتَ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ أَيِ الْخَلْقِ، لَمْ تَنْسِجْ -بِفَتْحِ التَّاءِ وَكُسْرِ السَّيْنِ أَوْ ضَمِّهَا- أَيِ لَمْ تَنْسِجِ الْعَنْكَبُوتُ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ، وَلَمْ تَحْمِ، أَيِ لَمْ تَدُرِ الْحَمَامُ حَوْلَهُ، فِي كَلَامِهِ لَفٌ وَنَشْرٌ مَعكُوسٌ^(٢).

وَسَبَبُ مَا ذَكَرَ أَنَّ هَذَيْنِ الْحَيَوَانَيْنِ لَا يَأْلِفَانِ عُمْرَانَا، فَمَتَى أَحَسَّا بِإِنْسَانٍ فَرًّا مِنْهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ الْكُفَّارُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَحْفَظُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، بِمَا يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ النَّاطِمُ بِقَوْلِهِ:

(١) سورة يونس - من الآية ٨٩

(٢) حيث بدأ في الشطر الأول بالحمام وثنى بالعنكبوت، ثم في الشطر الثاني بدأ بما هو متعلق بالعنكبوت أولاً، وثنى بما هو متعلق بالحمام. راجع معنى اللف والنشر في هامش البيت رقم ٧.

٧٩- وَقَايَةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةِ مِنَ الدُّرُوعِ، وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأَطْمِ

وقاية الله، أي حفظه له بهذين الضعيفين جداً من عدوه العظيم عدداً ومبدأ، أغنت أي كفت عن مضاعفة من الدروع -بدل مهمة- أي عن الدروع المضاعفة، وهي المنسوجة حلقتين حلقتين، تلبس للحفظ من هذا العدو، وعن عال أي مرتفع من الأطم -بضم الهمزة والطاء- أي الحصون، يتحصن فيها من هذا العدو الذي أخرج النبي صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١)، و«من» في الموضعين للبيان.

ثم استأنف الناظم ما اتصل به من قبل النبي، فقال:

٨٠- مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَجَرْتُ بِهِ^(٢) إِلَّا وَنِلْتُ جَوَاراً مِنْهُ لَمْ يُضْمِ

ما سامني الدهر، هذا على عادة العرب، أو هو على حذف مضاف، أي «أهل الدهر»، أي ما ظلمني أحد منهم ضيماً^(٣)، واستجرت به^(٤) صلى الله

(١) سورة التوبة - من الآية ٤٠

(٢) وفي رواية أخرى للبيت: «ما ضامني الدهر يوماً واستجرت به»

(٣) الضيم هو الظلم والإذلال. يقال «ضام فلاناً» أي ظلمه.

(٤) ليقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ [سورة النساء - من الآية ٦٤]، وفي تفسيره لهذه الآية يقول ابن كثير: وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو نصر بن الصباغ في كتابه «الشامل» الحكاية المشهورة عن العتي، قال: كنت جالسا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ وقد جئتك مستغفراً لذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي. ثم انشأ يقول:

يا خير من نفث بالقاع أعظمه فطاب من طينيه القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت مساكته فيه القفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي، فغلقت عيني، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فقال: يا عتي الحق الأعرابي، فبشره أن الله قد غفر له.

عليه وسلّم، إِلَّا وَنِلْتُ أَيِ أَصْبَتْ جَوَاراً - بِكَسْرِ الجيمِ وَضَمِّهَا - أَيِ قُرْباً مِنْهُ، لَمْ يُضْمِ أَيِ لَمْ يُحَقَّرْ، بَلْ يُحْتَرَمُ.

ثُمَّ عَطَفَ عَلَى جُمْلَةِ «مَا سَأَمَنِي» قَوْلَهُ:

٨١- وَلَا التَّمَسْتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ إِلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمٍ

وَلَا التَّمَسْتُ، أَيِ طَلَبْتُ غِنَى الدَّارَيْنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، بِالْكَفَايَةِ فِي الْأَوَّلَى وَالسَّلَامَةِ فِي الْآخِرَى، مِنْ يَدِهِ أَيِ نِعْمَتِهِ وَتَفَضُّلِهِ، إِلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى -بِفَتْحِ النونِ وَالْقَصْرِ- أَيِ أَخَذْتُ الْعَطَاءَ، مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمٍ -بِفَتْحِ اللامِ- أَيِ مَطْلُوبٍ مِنْهُ، لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَرُدُّ سَائِلَهُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(١)، وَبِيَدِهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(٢).

ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بَيَانِ صِفَاتِ آخِرِ النَّبِيِّ، فَقَالَ:

(١) رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابَ الْبَيْعِ وَكِتَابَ اللِّبَاسِ، بِسَنَدِهِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ بِبُرْدَةٍ، قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ فَقِيلَ لَهُ: نَعَمْ، هِيَ الشَّمْلَةُ مَنْسُوجَةٌ فِي حَاشِيَتِهَا، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي نَسِيتُ هَذِهِ بِيَدِي أَكْسَوْتُهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْتَاجاً إِلَيْهَا، فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنِهَا إِزَارَةٌ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكْسَنِهَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَجَلَسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَّأَهَا، ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ سَأَلْتَهَا إِيَّاهُ، لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سَائِلًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ مَا سَأَلْتَهُ إِلَّا لَتَكُونَ كَفَنِي يَوْمَ أَمُوتُ، قَالَ سَهْلٌ: فَكَانَتْ كَفَنَهُ.

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابَ الْفَضَائِلِ، بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا، إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ، فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمَ اسْلُمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ.

(٢) فَهُوَ الْقَاسِمُ عَنِ اللَّهِ عَطَاءَهُ كَمَا فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ: (إِنَّمَا أَنَا قَاسِمُ اللَّهِ يُعْطِي)، وَقَدْ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِفْتَاحَ خَزَائِنِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كَمَا فِي حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ: (إِنِّي فَرَطُكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ إِنِّي وَاللَّهُ لَأُنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُ خَزَائِنَ مِفْتَاحِ الْأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللَّهُ مَا أَخَافُ بَعْدِي أَنْ تَشْرَكُوا وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَتَفَاسَوْا فِيهَا).

٨٢- لَا تُتَكَّرِ الْوَحْيُ مِنْ رُؤْيَاهُ إِنَّ لَهُ قَلْبًا إِذَا نَامَتِ الْعَيْنَانِ لَمْ يَنَمْ

لَا تُتَكَّرِ الْوَحْيُ - وفي نُسخة لا تُتَكَّرُوا الْوَحْيُ - مِنْ رُؤْيَاهُ لَهُ فِي النَّوْمِ ^(١)،
إِنَّ لَهُ قَلْبًا إِذَا نَامَتِ الْعَيْنَانِ مِنْهُ، لَمْ يَنَمْ أَي قَلْبُهُ ^(٢)، وهو مهبطُ الْوَحْيِ فِي
النَّوْمِ وَالْيَقَظَةِ.

و«مِنْ رُؤْيَاهُ» مُتَعَلِّقٌ بِ«تُتَكَّرِ»، أَوْ حَالٌ مِنْ «الْوَحْيِ»، وَ«مِنْ» لِلتَّبْعِيضِ، أَوْ
لِلإِبْتِدَاءِ، وَقِيلَ بِمَعْنَى «فِي».

٨٣- وَذَاكَ حِينَ بُلُوغٍ مِنْ نُبُوتِهِ فَلَيْسَ يُنْكَرُ فِيهِ حَالٌ مُخْتَلِمٌ

وذَاكَ، أَي رُؤْيَاهُ الْوَحْيِ فِي النَّوْمِ، حِينَ أَي زَمَنَ بُلُوغٍ كَانَتْ مِنْ نُبُوتِهِ، أَي
وَصُولِهِ إِلَيْهَا، وَقَدْ نُبِّيَ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ عُمْرِهِ، وَهِيَ حَدُّ مَبْدَأِ النُّبُوءَةِ،
فَلَيْسَ الشَّأْنُ يُنْكَرُ - بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ - فِيهِ، أَي فِي الزَّمَنِ الْمَذْكُورِ حَالٌ مُخْتَلِمٌ،
مِنْ رُؤْيَا الْوَحْيِ فِي النَّوْمِ ^(٣).

و«مِنْ نُبُوتِهِ» صِفَةٌ لـ «بُلُوغٍ» كَمَا أَشْرَفْتُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ مُتَعَلِّقٌ بِ«بُلُوغٍ»، وَالْمُخْتَلِمُ
الْبَالِغُ.

(١) رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ بَدْءِ الْوَحْيِ، بِسَنَدِهِ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى
عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: (أَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي
النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصَّبْحِ...).

(٢) رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ التَّهَجُّدِ، بَابُ قِيَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَمَضَانَ
وغيره، بِسَنَدِهِ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ أَنَّهَا صَالَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ لَهَا: (يَا عَائِشَةُ إِنْ عَيْنِي تَمَامَانِ،
وَلَا يَنَامُ قَلْبِي).

(٣) والمعنى أن الْوَحْيَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَثْنَاءَ نَوْمِهِ، كَانَ فِي ابْتِدَاءِ النُّبُوءَةِ، وَكَانَ حِينَهَا
قَدْ بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ، وَحِكْمَةُ ذَلِكَ الْإِسْتِنَاسُ بِمَلَاقَةِ الْمَلِكِ فِي النَّوْمِ لِطَبِيقِ ذَلِكَ فِي الْيَقَظَةِ بَعْدَ، فَلَمَّا
اسْتَأْنَسَ بِذَلِكَ أَتَاهُ فِي الْيَقَظَةِ.

٨٤- تَبَارَكَ اللَّهُ مَا وَحَى بِمُكْتَسَبٍ وَلَا نَبِيٍّ عَلَى غَيْبِ بَيْتِهِمْ —

تَبَارَكَ اللَّهُ تَعَالَى، مَا وَحَى بِمُكْتَسَبٍ لِأَحَدٍ بِعَمَلٍ، بَلْ بِفَضْلِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ^(١)، وَلَا نَبِيٍّ عَلَى غَيْبِ أَيِّ غَائِبٍ عَنْهُ بِقَوْلِهِ بِمُتَّهِمٍ، لِعِظَمَتِهِ إِجْمَاعاً، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾^(٢) أَيِّ بِمُتَّهِمٍ، وَالْبَاءُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ.

٨٥- كَمْ أَتَرَأْتُ وَصِيباً بِاللَّمْسِ رَاحَتَهُ وَأُطْلَقْتُ أَرِيأً مِنْ رِبْقَةِ اللَّمِّ —

كَمْ خَبَرِيَّةٌ بِمَعْنَى كَثِيرًا، أَتَرَأْتُ أَيَّ شَفْتُ، وَصِيباً بِكَسْرِ الصَّادِ- أَيَّ مَرِيضاً، بِاللَّمْسِ أَيَّ بِسَبِيهِ، رَاحَتَهُ أَيَّ بَطْنُ كَفِّهِ الْمُبَارَكَةِ^(٣)، وَأُطْلَقْتُ أَيَّ رَاحَتَهُ، أَرِيأً

(١) قَالَ الْإِمَامُ اللَّقَانِي فِي جَوْهَرَةِ التَّوْحِيدِ:

وَلَمْ تَكُنْ نَبْوَةً مُكْتَسَبَةً وَلَوْ رَقِيَ فِي الْخَيْرِ أَعْلَى عَقِبِهِ
بَلْ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ لِمَنْ بِشَاءَ جَلَّ اللَّهُ وَاهِبُ الْمُنَى

(٢) سُورَةُ التَّكْوِينِ - آيَةُ ٢٤

(٣) يُشِيرُ بِذَلِكَ الْإِمَامُ الْبُوصَيْرِيُّ إِلَى مَا وَرَدَ مِنْ إِبْرَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمَرْضَى، مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ نُورُ الدِّينِ الْحَلَبِيُّ فِي سِيرَتِهِ الْمَشْهُورَةِ بِاسْمِ «السِّيَرَةِ الْحَلَبِيَّةِ»: وَجَاءَ عَنْ قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ يَوْمَ أُخَذَ أَنْفِي السَّهَامُ بِوَجْهِهِ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَنِي سَهْمٌ خَرَجَتْ مِنْهُ حَدَقَتِي، فَلَمَّا رَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كَفِّي نَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ قِ قَتَادَةَ كَمَا وَقَى وَجْهَ نَبِيِّكَ»، ثُمَّ رَدَّهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَاحَتِهِ الشَّرِيفَةِ، فَكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْنِيهِ وَأَشَدَّهُمَا بَصَرًا. وَرَوَى أَنْ قَتَادَةَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي امْرَأَةً أَحْبَبْتُهَا، وَأَخْشَى أَنْ تَرَانِي تَقْدُرُنِي، فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَفَعْتُ حَدَقَتِي فِي كَفِّي، وَقَالَ لِي: إِنَّ شَنْتَ صَبِرْتَ وَلَكِ الْجَنَّةَ، وَإِنْ شَنْتَ رَدَدْتُهَا وَدَعَوْتَ اللَّهَ تَعَالَى لِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْجَنَّةَ لِحِزَاءِ جَمِيلٍ وَعِطَاءِ جَلِيلٍ، وَإِنِّي مَغْرَمٌ بِحُبِّ النِّسَاءِ وَأَخَافُ أَنْ يَقْلَنَ أَعْوَرُ فَلَا يُرَدِّنِي، وَلَكِنْ تَرَدُّهَا وَتَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى لِي الْجَنَّةَ، فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ، وَرَدَّهَا إِلَيَّ مُوَضَّعَةً، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اكْسِهْ جَمَالًا وَقِهِ كَمَا وَقَى وَجْهَ نَبِيِّكَ بِوَجْهِهِ» فَكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْنِيهِ، وَكَانَتْ لَا تَرْمُدُ إِذَا رَمَدَتْ الْآخَرَى. وَحَكَى عَنْ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ أَنَّ رَجُلًا مِنْ وَلَدِ قَتَادَةَ، قَدِمَ عَلَى عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ:

أَنَا ابْنُ الَّذِي سَأَلْتَ عَلَى الْخَدِّ عَيْنَهُ فَرُدَّتْ بِكَفِّ الْمَصْطَفَى أَحْسَنَ الرَّدِّ
فَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ لِأَوَّلِ أَمْرِهَا فَيَا حَسَنَ مَا عَيْنُ وَيَا حَسَنَ مَا رَدِّ

بِكُسْرِ الرَّاءِ - أَي مُخْتَاجاً إِلَى الْخَلَاصِ مِنْ رِيْقَةِ اللَّعْمِ بِكُسْرِ الرَّاءِ وَسُكُونِ الْمُوَحَّدَةِ وَفَتْحِ اللَّامِ وَالْمِيمِ - أَي عُروَةَ الْجُنُونِ .

رُوي^(١) أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِابْنٍ لَهَا بِهِ جُنُونٌ، فَمَسَحَ بِيَدِهِ الْمُبَارَكَةِ صَدْرَهُ، فَتَغَّ ثَعَةً بِـالْمُتَلَثَّةِ وَالْمُهْمَلَةِ - أَي قَاءً، فَخَرَجَ مِنْ فِيهِ^(٢) مِثْلُ الْجَرْوِ الْأَسْوَدِ . وَ«مِنْ رِيْقَةٍ» مُتَعَلِّقٌ بِـ«أُطْلِقْتُ» أَوْ بِمُخَذَّوْفٍ كَمَا تَقَرَّرَ، وَ«مِنْ» لِلْإِبْتِدَاءِ .

٨٦- وَأَحْيَتِ السَّنَةَ الشَّهْبَاءَ دَعْوَتُهُ حَتَّى حَكَتْ غُرَّةً فِي الْأَعْصِرِ الدُّهْمِ

وَأَحْيَتِ السَّنَةَ الشَّهْبَاءَ، يَغْنِي الْقَلِيلَةَ الْمَطَرِ لِعَلْبَةِ بَيَاضِ الْأَرْضِ فِيهَا يَعْذَمُ النَّبَاتُ عَلَى سَوَادِهَا بِالنَّبَاتِ، فَهِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْبَيَاضِ مِيتَةٌ أَحْيَتْهَا دَعْوَتُهُ الْمُبَارَكَةُ بِالسَّقْيَا^(٣)، حَتَّى حَكَتْ أَي شَابَهَتْ تِلْكَ السَّنَةَ غُرَّةً أَي بَيَاضاً، فِي الْأَعْصِرِ جَمْعُ عَصْرِ وَهُوَ الزَّمَنُ، أَي فِي الْأَزْمِنَةِ الدُّهْمُ بِضَمِّ الدَّالِ وَالْهَاءِ - جَمْعُ «أَذْهَمَ» وَهُوَ الْأَسْوَدُ، وَالْمَعْنَى فِي الْأَزْمِنَةِ السَّوْدُ لِشِدَّةِ خُضْرَةِ الزَّرْعِ فِيهَا،

(١) رواه أحمد في مسنده، والدارمي في سننه، بسنديهما عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) أي من فيه، وهو اسم من الأسماء الخمسة.

(٣) روى البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، أبواب الاستسقاء، بسنده عن أنس بن مالك: (أَنَّ رجلاً دخل المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً وقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله أن يغيثنا، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه، وقال: اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا، قال أنس: ولا والله، ما نرى في السماء سحابة، ولا قزعة، وما بيننا وبين سلع من بيت، ولا دار، قال: فطلعت سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، قال أنس: فلا والله ما رأينا الشمس ستاً، قال: ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب، فاستقبله قائماً، فقال: يا رسول الله! هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله أن يمسخها عنا، قال: فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه، فقال: اللهم حولنا، ولا علينا، اللهم على الآكام، والطراب، ويطون الأودية، ومنابت الشجر، قال: فأقلعت، وخرجنا نمشي في الشمس).

حتى يرى أنه أسودّ من إخصابها، وتلك السنة أخصب منها، حتى كأنه غرة فيها.

وغرة كل شيء أحسنه، والشهباء من قولهم «غرة شهباء» أي فيها شعر يخالف بياضها. و«حتى» غاية، متعلق بـ «أحيت»، و«في الأغصان» متعلق به، أو صفة لـ «غرة».

٨٧- يعارض جاداً أو خلّت البطاح بها سيب من اليم أو سيل من العرم

يعارض، متعلق بـ «حكّت» أو بـ «أحيت»، أي سحاب^(١) جاد بالمطر الكثير، أو خلّت أي إلى أن ظننت البطاح، جمع «بطحاء» أو «أبطح»، وهو الوادي المتسع المشتعل على حضباء، بها سيب^(٢) - بفتح السين - أي جري من اليم، أي البحر، أو بها سيل من العرم، أخذاً من قوله تعالى: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾^(٣) وهو وادٍ.

وجملة «بها سيب» في موضع المفعول الثاني لـ «خلّت»، و«أو» عقبها للتخيير، وقبلها بمعنى الواو وبمعنى «إلى» كما أشرت إليه، وشاهد قول الشاعر:

لأستسهلن الصّعب أو أدرك المنى *** فما انقادت الآمال إلا لصابر

و«من» في الموضعين للابتداء.

(١) ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ غَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا غَارِضٌ مُنْطَرِنًا﴾ [سورة الأحقاف - من الآية ٢٤].

(٢) مصدر «ساب» بمعنى «ذهب حيث شاء»، ويأتي أيضاً بمعنى العطاء والمعروف ونحوه.

(٣) سورة سبا - من الآية ١٦

ولمّا كان قوله «أحييت السّنة الشّهباء دعوتُهُ» مُستلزماً كونَ تلكَ الآياتِ ظاهرةً لكلِّ أحدٍ، لأنَّ عُمومَ القَخطِ والخَصْبِ، لا يختصُّ بأحدٍ، قدَّرَ الناظمُ أنَّ المُنكَرَ لها قالَ له: كُفَّ عَنَّا مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي لَا نُسَلِّمُهَا، فَأَجَابَهُ تَقْدِيرًا بِأَنَّهُ كَيْفَ يَلِيقُ بِكَ إِنكَارُهَا وَقَدْ ظَهَرَتْ ظُهُورًا بَيِّنًا وَصَرِيحًا، بِقَوْلِهِ:

الفصل السادس: في شرف القرآن

٨٨- دَعْنِي وَوَضِفِي آيَاتٍ لَهُ ظَهَرَتْ ظُهُورَ نَارِ الْقَرَى لَيْلًا عَلَى عِلْمٍ

دَعْنِي أَيِ اتْرَكْنِي أَيُّهَا الْمُتَكَبِّرُ، وَوَضِفِي أَيِ ذِكْرِي آيَاتٍ -مَفْعُولٌ «وَضَفَ»- لَهُ، ظَهَرَتْ ظُهُورَ نَارِ الْقَرَى -بَكْسَرِ الْقَافِ- أَيِ الضِّيَافَةِ، لَيْلًا عَلَى عِلْمٍ أَيِ جَبَلٍ مُرْتَفِعٍ، لِجَلْبِ الضِّيْفَانِ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ، الَّذِي هُوَ غَايَةُ فِي الظُّهُورِ.

و«وَضِفِي» مَغْطُوفٌ عَلَى يَاءٍ «دَعْنِي» أَوْ مَفْعُولٌ مَعَهُ، وَ«لَهُ» صِفَةٌ لِ «آيَاتٍ»، أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِ «ظَهَرَتْ»، وَ«لَيْلًا»، وَ«عَلَى عِلْمٍ» مُتَعَلِّقَانِ بِ «ظُهُورٍ».

٨٩- فَالْدُرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظِمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمٍ

فَالْدُرُّ أَيِ اللُّوْلُؤِ الْمَعْلُومُ حُسْنُهُ، يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظِمٌ فِي سِلْكِهِ، وَلَيْسَ أَيِ الدُّرِّ، يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمٍ.

كَذَلِكَ آيَاتُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي ظَهَرَتْ غَايَةُ فِي الظُّهُورِ، لَا يَزْدَادُ ظُهُورُهَا بِذِكْرِهَا، وَيَزْدَادُ حُسْنُهَا بِنَظْمِهَا الَّذِي هُوَ كَنَظْمِ الدُّرِّ، كَهَذَا النَّظْمِ، بِخِلَافِ نَظْمِهَا عَلَى غَيْرِ نَظْمِ الدُّرِّ، كَنَظْمِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَدَاحِ، فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهَا حُسْنًا لَكِنْ لَا يَنْقُصُ قَدْرُهَا، الَّذِي هُوَ أَعْلَى مِنْ قَدْرِ الدُّرِّ.

وقوله «حُسْنًا» مفعول «يزداد»، أو تمييزٌ مُحَوَّلٌ عن فاعله، وجُمْلَةٌ «وهو مُنْتَظَمٌ» حالٌ من فاعله أيضاً، و«قَدَرًا» مفعول «يَنْقُصُ»، أو تمييزٌ مُحَوَّلٌ عن فاعله، و«غير مُنْتَظَمٌ» حالٌ من فاعله أيضاً.

٩٠- فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِي الْمَدِيحِ^(١) إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشُّيَمِ

فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِي الْمَدِيحِ -منصوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ^(٢)- إِلَى مَا فِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ أَي كَثْرَةِ الصِّفَاتِ، الَّتِي كُلُّ مِنْهَا خُلِقَ أَي طَبِيعَةً لَهُ، وَالشُّيَمِ جَمْعُ «شَيْمَةٍ» وَهِيَ الْخُلُقُ، وَعَطْفُ الْمُرَادِفِ سَائِعٌ لِاخْتِلَافِ اللَّفْظِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾^(٣).

و«مَا» الْأُولَى لِلِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ «تَطَاوُلُ» بِضَمِّ الْوَاوِ، وَالتَّطَاوُلُ أَنْ تَمُدَّ عُنُقَكَ قَائِمًا لِيَتَنَظَّرَ إِلَى بَعِيدٍ، وَالْمَعْنَى: إِنَّ تَطَاوُلَ آمَالِي بِالْمَدِيحِ إِلَى صِفَاتِهِ، لَا يَصِلُ إِلَيْهَا جَمِيعُهَا.

و«إِلَى» مُتَعَلِّقٌ بِ«تَطَاوُلِ»، وَ«مَا» مَوْصُولَةٌ صَلَاتُهَا «فِيهِ»، وَ«مِنْ كَرَمٍ» مُتَعَلِّقٌ بِالصَّلَةِ، وَ«مِنْ» لِلْبَيَانِ أَوْ التَّبَعِيضِ.

٩١- آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثَةٌ قَدِيمَةٌ، صِفَةُ الْمَوْصُوفِ بِالْقِدَمِ

آيَاتُ حَقٍّ، بِالرَّفْعِ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مُقَدَّرٌ قَبْلَهُ أَي «مِنْ مُعْجَزَاتِ نَبِيِّنَا»، وَبِالنَّصْبِ

(١) وَفِي رَوَايَةِ أُخْرَى لِلْبَيْتِ: «فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ».

(٢) أَي مَنْصُوبٌ بِحَذْفِ حَرْفِ الْجَرِّ، وَالتَّقْدِيرُ «فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِي بِالْمَدِيحِ» فَحَذَفَتْ الْبَاءُ.

(٣) سُورَةُ الْبَقَرَةِ - مِنَ الْآيَةِ ١٥٧

بَدَلٌ مِنْ «آيَاتٍ لَهُ»^(١)، وما بَعْدَ الْمُبْتَدَأِ أَوْ الْبَدَلِ إِلَى قَوْلِهِ «وَكَاالْمِيزَانِ مُعْدَلَةٌ»^(٢) صِفَاتٌ لَهُ، بِجَعْلٍ «صِفَةُ الْمَوْصُوفِ بِالْقَدَمِ» نَكْرَةً وما بَيْنَ الصِّفَاتِ مِنْ مُتَعَلِّقَاتِهَا، مِنْ الرَّحْمَنِ أَيْ كَائِنَةٌ مِنْهُ، مُحَدَّثَةٌ لَفْظًا قَدِيمَةٌ مَعْنَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾^(٣)، وَفِي نُسْخَةٍ بَدَلٌ «مُحَدَّثَةٌ» «مُخَكَّمَةٌ»، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾^(٤)، صِفَةُ الْمَوْصُوفِ بِالْقَدَمِ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى.

٩٢- لَمْ تَقْتَرِنْ بِرَمَّانٍ وَهِيَ تُخْبِرُنَا عَنْ الْمَعَادِ، وَعَنْ عَادٍ، وَعَنْ إِرَمَ

لَمْ تَقْتَرِنْ بِرَمَّانٍ مِنْ حَيْثُ مَعْنَاهَا^(٥)، وَالْبَاءُ لِلْمِلَاصِقَةِ أَوْ لِلْمَصَاحِبَةِ، وَهِيَ تُخْبِرُنَا، حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ «تَقْتَرِنْ»، عَنْ الْمَعَادِ أَيْ عَوْدِ الْخَلْقِ بَعْدَ إِغْدَامِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾^(٦)، وَعَنْ عَادٍ^(٧) وَهُمْ قَوْمٌ هَوْدٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ: ﴿بَاهُودَ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾^(٨) إِلَى آخِرِهِ، وَعَنْ إِرَمَ وَهِيَ عَادٌ أُخْرَى^(٩)، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾^(١٠) إِلَى آخِرِهِ. وَ«عَنْ» فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ لِلْمَجَاوِزَةِ.

(١) فِي الْبَيْتِ رَقْم ٨٨ فِيمَا سَبَقَ.

(٢) فِي الْبَيْتِ رَقْم ١٠٢ فِيمَا يَلِي.

(٣) سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ - الْآيَةُ ٢

(٤) سُورَةُ هُودَ - مِنْ الْآيَةِ ١

(٥) لِأَنَّهَا قَدِيمَةٌ مَعْنَى كَمَا مَرَّ فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ، وَالزَّمَانُ حَادِثٌ، وَلَا يَقْتَرِنْ الْقَدِيمُ بِالْحَادِثِ، لِأَنَّهُ لَوْ اقْتَرَنَ بِهِ لَكَانَ حَادِثًا.

(٦) سُورَةُ الرُّومِ - مِنْ الْآيَةِ ٢٧

(٧) قَبِيلَةٌ سَمِيَتْ بِاسْمِ أَبِيهَا عَادِ بْنِ عَوْصِ بْنِ إِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ.

(٨) سُورَةُ هُودَ - مِنْ الْآيَةِ ٥٣

(٩) قِيلَ أَنَّهَا نَسَبَتْ إِلَى اسْمِ جَدِّهِمْ إِرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ، وَقِيلَ إِنَّ «إِرَمَ» اسْمُ أَرْضِهِمْ وَبِلَدَتِهِمْ.

(١٠) سُورَةُ الْفَجْرِ - الْآيَةُ ٦

٩٣- دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجَزَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدْمِ

دَامَتْ أَيِ الْآيَاتِ، وَهِيَ أَلْفَاظُ الْقُرْآنِ الَّتِي وَقَعَ بِهَا الْإِعْجَازُ، لَدَيْنَا أَيِ عِنْدَنَا، فَفَاقَتْ أَيِ عَلَتْ شَرْقًا كُلَّ مُعْجَزَةٍ كَانَتْ مِنَ النَّبِيِّينَ، إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدْمِ أَيِ تَسْتَمِرَّ، فَإِنَّ مُعْجَزَةَ كُلِّ نَبِيٍّ غَيْرِ نَبِينَا تَنْقُضِي بِمَوْتِهِ، بِخِلَافِ مُعْجَزَةِ نَبِينَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

٩٤- مُحْكَمَاتٌ فَمَا يُبْقِينَ مِنْ شُبِّهِ لِدِي شِقَاقٍ وَمَا يَبْغِينَ مِنْ حَكَمٍ

مُحْكَمَاتٌ -بِفَتْحِ الحَاءِ وَالْكَافِ الْمُشَدَّدَةِ- أَيِ الْآيَاتِ الَّتِي حَكَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى، أَيِ أَتَى بِهَا ذَوَاتِ حَكَمٍ وَدَالَّةٍ عَلَى الْحِكْمَةِ أَيِ الْحَقِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَسْ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾^(٢)، أَيِ ذِي الْحِكْمَةِ، أَوْ لِأَنَّهُ دَلِيلٌ نَاطِقٌ بِالْحِكْمَةِ كَالْحَيِّ.

فَمَا -الْفَاءُ سَبَبِيَّةٌ- يُبْقِينَ مِنْ شُبِّهِ جَمْعُ «شُبْهَةٍ»، لَدِي شِقَاقٍ مُتَعَلِّقٌ بِ «يُبْقِينَ» أَوْ بِ «شُبْهَةٍ»، أَيِ لِمَا يَبْغِينَ مِنْ حَكَمٍ مُخَالَفَةٍ لِلْحَقِّ، وَمَا يَبْغِينَ أَيِ يَطْلُبْنَ مِنْ حَكَمٍ -بِفَتْحَتَيْنِ- أَيِ حَاكِمٍ يَحْكُمُ عَلَى مُخَالَفِ الْحَقِّ، لِيُظْهِرَ بَرَاهِينَهَا عَلَيْهِ^(٣).

و«مَا» فِي الْمَوْضِعَيْنِ نَافِيَةٌ، وَ«مِنْ» كَذَلِكَ زَائِدَةٌ.

(١) قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [سُورَةُ الْحَجَرِ - الْآيَةُ ٩]، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ مِنْ صَحِيحِهِ، بِسَنَدِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

(٢) سُورَةُ يَس - الْآيَتَانِ ١ وَ ٢

(٣) يَقُولُ ابْنُ الْعَمَادِ الْأَفْهَسِيُّ فِي شَرْحِهِ: أَيِ الْآيَاتِ لَا تَطْلُبُ حَكْمًا يَحْكُمُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ يَعَارِضِهَا بِالشُّبْهَةِ، لِأَنَّهَا فِي نَفْسِهَا حَاكِمَةٌ وَاضِحَةٌ الْبَرَاهِينِ.

٩٥- ما حُورِبَتْ قَطُّ إِلَّا عَادَ مِنْ حَرْبٍ أَعْدَى الْأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقِي السَّلَمِ

ما حُورِبَتْ أي عُورِضَتْ قَطُّ بِأَنْ ادْعَى الْإِثْنَانُ بِمِثْلِهَا، إِلَّا عَادَ أي رَجَعَ مِنْ حَرْبٍ -بِفَتْحِ الْمُهِمْلَتَيْنِ- أي شِدَّةٍ، وَحَقِيقَتُهُ سَلْبُ الْمَالِ وَيَلْزَمُ الْمَسْلُوبُ مِنْهُ الشِدَّةُ، أَعْدَى الْأَعَادِي أي أَشَدُّهُمْ عداوَةً مِنْ مُحَارَبَتِهَا إِلَيْهَا مُلْقِي السَّلَمِ -بِفَتْحَتَيْنِ- أي الْاسْتِسْلَامِ وَالْانْقِيَادِ، أي رَجَعَ مُسْتَسْلِمًا مُنْقَادًا لِعَجزِهِ عَنْ مُعَارَضَتِهَا، وَعَدَمِ إِيْمَانِهِ بِالْجَانِي ^(١) بِهَا عِنَادًا.

و«الأعادي» جمع «عدو»، قال تعالى: ﴿وَالْقَوْمَ إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ﴾ ^(٢)، و«مِنْ» لِلْإِتْدَاءِ، و«أَعْدَى» فاعِلُ «عَادَ»، و«إِلَيْهَا» مُتَعَلِّقٌ بِهِ، و«مُلْقِي» خَبَرٌ، لِأَنَّهُ مِنْ أَخَوَاتِ كَانَ.

٩٦- رَدَّتْ بِلَاغَتُهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا رَدَّ الْغَيُورِ يَدَ الْجَانِي عَنِ الْحَرَمِ

رَدَّتْ بِلَاغَتُهَا أي صَرَفَتْ فَصَاحَتُهَا، دَعْوَى مُعَارِضِهَا عَنِ الْإِثْنَانِ بِمِثْلِهَا ^(٣)، رَدَّ الْغَيُورِ أي كَرَّدَ كَثِيرِ الْغَيْرَةِ، يَدَ الْجَانِي عَنِ الْحَرَمِ -بِضْمِ الْحَاءِ وَفَتْحِ الرَّاءِ- جمعُ «حُرْمَةٍ»، أي عَنِ حُرْمِ الْغَيُورِ كَامْرَأَتِهِ وَأَخْتِهِ، وَذَلِكَ أَشَدُّ الرَّدِّ.

(١) فاعِلُ «جاء».

(٢) سورة النساء - من الآية ٩٠

(٣) يقول الباجوري: كما وقع لمسيمة الكذاب، حيث عارض القرآن لما ادعى النبوة، وأراد أن يأتي بقرآن يشبه القرآن، فقال في معارضة سورة النازعات: «والطاحنات طحننا، والعاجنات عجننا، والخابزات خبزنا»، فافتضح لا بارك الله فيه.

٩٧- تَهَا مَعَانِ كَمْوَجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيمِ

لها أي لِيَتْلِكَ الآيَاتِ مَعَانِ كَمْوَجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ^(١) أي زيادةً، وَذَلِكَ لَا غَايَةَ لَهُ، وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيمِ لِلانْتِفَاعِ بِهَا أَكْمَلَ الْانْتِفَاعِ. و«فَوْقَ» مَغْطُوفٌ عَلَى «كَمْوَجِ»، وَنَضْبُهُ لَازِمٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، وَإِنْ كَانَتْ مُجَازِيَةً هُنَا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ»^(٢).

وَإِذَا كَانَتْ مَعَانِي الْآيَاتِ كَمْوَجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ:

٩٨- فَلَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا — وَلَا تُسَامُ عَلَى الْإِكْثَارِ بِالسَّامِ

فَلَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى أَي تُحْفَظُ عَجَائِبُهَا جَمْعُ «عَجِيْبَةٍ»، وَهِيَ الشَّيْءُ الْعَدِيمُ النَّظِيرِ، وَالْإِضَافَةُ لِلْبَيَانِ، أَيِ الْعَجَائِبِ الَّتِي هِيَ مَعَانِي الْآيَاتِ، وَلَا تُسَامُ أَيِ تُوصَفُ عَلَى الْإِكْثَارِ لَهَا الَّذِي لَا غَايَةَ لَهُ، بِالسَّامِ لَهَا -بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ- أَيِ بِالْمَلَالَةِ، لِحُسْنِ تِلْكَ الْمَعَانِي، وَالْبَاءُ لِلإِلْصَاقِ.

٩٩- قَرَّتْ بِهَا عَيْنُ قَارِيهَا، فَقُلْتُ لَهُ لَقَدْ ظَفَرْتُ بِحَبْلِ اللَّهِ فَاغْتَصِمْ

قَرَّتْ بِهَا عَيْنُ قَارِيهَا -بِإِدْغَالِ هَمْزَتِهِ يَاءً سَاكِنَةً لِلْوَزَنِ- أَيِ سُرَّتْ بِهَا وَاطْمَأْنَنْتْ مِمَّا يَسُوُّوْهَا، يُقَالُ «قَرَّتْ عَيْنُهُ» أَيِ سُرَّتْ بِدَمْعَةِ الْفَرَحِ وَلَمْ تَسْخَرْ

(١) إشارة إلى قوله تعالى: «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِثْلَ مَدَادٍ لَكَلِمَاتٍ رَتَّبْتُ لِنَفْسِ الْبَحْرِ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَتَّبْتُ وَلَوْ جُنَّتْ بِمِثْلِهِ مَدَادًا» [سورة الكهف - الآية ١٠٩].

(٢) سورة يوسف - من الآية ٢٦

بِدَمْعَةِ الْحُزَنِ، فَقُلْتُ لَهُ، أَيِ لِقَائِهَا: وَاللَّهِ لَقَدْ ظَفِرْتُ، أَيِ فُزْتُ بِحَبْلِ اللَّهِ، أَيِ
بِمَا يُوَصِّلُكَ إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ، فَاعْتَصِمِ أَيِ اسْتَمْسِكْ بِهِ، بِأَنْ تَعْمَلَ بِمُقْتَضَاهُ.

١٠٠- إِنْ تَتْلَاهَا خَيْفَةً مِنْ حَرِّ نَارٍ لَظَى أَطْفَاتٌ حَرٌّ لَظَى مِنْ وَرْدِهَا الشِّيمُ

إِنْ تَتْلَاهَا أَيِ الْآيَاتِ خَيْفَةً أَيِ خَوْفًا، أَوْ خَائِفًا مِنْ حَرِّ نَارٍ لَظَى أَيِ جَهَنَّمَ،
أَطْفَاتٌ عَنْكَ بِالْآيَاتِ حَرٌّ لَظَى بِحَيْثُ لَا تَصِلُ إِلَيْكَ، مِنْ أَجْلِ وَرْدِهَا أَيِ مُورِدِ
الْآيَاتِ الشِّيمُ -يَفْتَحُ الْمُعْجَمَةَ وَكَسَرَ الْمُوَحَّدَةَ- أَيِ الْبَارِدِ، وَشَبَّهَهَا بِالْمَاءِ فِي ذَلِكَ
لِأَنَّهَا سَبَبُ حَيَاةِ الْأَرْوَاحِ، وَهُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْأَشْبَاحِ، وَجَعَلَ مُورِدَهَا وَهُوَ الْقَمُ^(١)
كَافِيًا فِي الْإِطْفَاءِ.

١٠١- كَأَنَّهَا الْحَوْضُ، تَبَيَّضُ الْوَجُوهُ بِهِ مِنَ الْعُصَاةِ وَقَدْ جَاءَهُ كَالْحَمَمِ

كَأَنَّهَا أَيِ الْآيَاتِ الْحَوْضُ، أَيِ مَأْوَةِ تَبَيَّضُ الْوَجُوهُ بِهِ -حَالٌ مِنَ الْحَوْضِ-
مِنَ الْعُصَاةِ -صِفَةُ لِلْوَجُوهِ أَوْ بَيَانٌ إِنْ أُرِيدَ بِهَا الذُّنُوبُ- وَقَدْ جَاءَهُ مِنَ النَّارِ -حَالٌ
مِنَ الْعُصَاةِ- كَالْحَمَمِ -بِضْمِ الْمُهْمَلَةِ وَفَتْحِ الْمِيمِ- جَمْعُ «حُمَمَةٍ» بِمَعْنَى فُحْمَةٍ،
وَهُوَ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ «جَاعُوا».

وَوَجْهُ الشَّبَّهِ أَنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ لَمَّا كَانَتْ تَشْفَعُ فِي تَالِيهَا وَقَدْ جَاءَ مُسَوِّدُ
الْوَجْهِ مِنَ الْمَعَاصِي، فَيَبْيَضُ وَجْهُهُ بِشَفَاعَتِهَا فِيهِ، شَبَّهَهَا بِالْحَوْضِ الَّذِي تَبْيَضُ
الْوَجُوهُ مِنَ الْعُصَاةِ بِهِ، فِي خَبَرِ الصَّحِيحِينَ: (فَيُخْرِجُونَ مِنْهَا فَيُلْقُونَ فِي نَهْرِ

(١) فَالْآيَاتِ تَتْلَى بِالْقَمِ، لِذَلِكَ كَانَ مُورِدَهَا.

الحياة^(١) وفي رواية^(٢): فيصبُّ عليهم ماء الحياة، أي فيذهبُ السوادُ عنهم، ويظهرُ البياضُ.

١٠٢- وكالصراطِ وكالميزانِ مَعْدَلَةٌ فالقِسْطُ من غيرها في الناسِ لم يَقُمْ

وكالصراطِ -مغطوفٌ على جملة التشبيه عطفَ صفةٍ على صفةٍ- أي آياتُ حقٍّ كالصراطِ، أي الطريقِ في الوصولِ به إلى المقصودِ، وكالميزانِ مَعْدَلَةٌ أي عدلاً، أي استقامةً، وهو تمييزٌ من الذي قبله، فالقِسْطُ أي العدلُ من غيرها أي الآياتِ، في الناسِ لم يَقُمْ. و«من» و«في» مُتَعَلِّقَانِ بـ «يَقُمْ».

لا يُقَالُ: بلْ يَقُومُ من غيرها فيهم، كالسُنَّةِ والإجماعِ، لأننا نقولُ: غيرها راجعٌ إليها بوسطِ^(٣) أو دونه، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا﴾^(٤)، ومُسْتَنَدٌ الإجماعِ ونحوه الكتابُ والسُنَّةُ، ولو بوسطِ.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، ولقظه عند مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يُدْخِلُ الله أهل الجنة الجنة، يَدْخُلُ من يشاء برحمته، ويَدْخُلُ أهل النار النار، ثم يقول: انظروا من وجنتم في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه، فيخرجون منها حمماً قد اْمْتَحَسُوا، فيلقون في نهر الحياة أو الحيا، فينبئون فيه كما تنبت الحبة [أي يزور الغُشب] إلى جانب السيل، ألم تروها كيف تخرج صفراء ملتوية».

(٢) رواية أحمد في مسنده والطبراني في المعجم الأوسط.

(٣) أي واسطة.

(٤) سورة الحشر - من الآية ٧

١٠٣- لَا تَعْجَبَنَّ لِخَسُودٍ رَاحَ يُنْكِرُهَا - تَجَاهُلًا وَهُوَ عَيْنُ الْحَاقِقِ الْفَهْمِ

لَا تَعْجَبَنَّ - يبين أنه على الفتح لاتصال نون التوكيد به - لِحَسُودٍ رَاحَ أي ذهب، والحالة أنه يُنْكِرُهَا، أي الآياتِ تَجَاهُلًا - يَنْصِبُهُ مَقُولًا لَهُ، أو حال من فاعِلِ «يُنْكِرُهَا»، أي مُتَجَاهِلًا بِهَا، وهو - أي والحالة أنَّ الحَسُودَ - عَيْنُ الْحَاقِقِ - بِذَالِ مُعْجَمَةٍ - أي الماهرِ الْفَهْمِ أي الشَّدِيدِ الْفَهْمِ، لما اشتمَلَتْ عَلَيْهِ من أنواعِ الإِعْجَازِ، الدَّالَّةُ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْجَائِي بِهَا عَنْ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْكَارُهَا الْمَكْذُوبُ لَهُ^(١) عِنَادًا، دَعَا إِلَيْهِ الْحَسَدُ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نِعْمَةِ الرِّسَالَةِ، فَلَا عَجَبَ فِي إِنْكَارِهَا لِلْحَسَدِ، فَإِنَّ الْمَوْجُودَ قَدْ يُنْكِرُ لِأَمْرِ مَا، كَمَا فِي قَوْلِهِ:

١٠٤- قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ، أي تَنْفِي وجودَهُ مِنْ أَجْلِ رَمَدٍ بِهَا، تَظُنُّهُ غَيْرَ مَانِعٍ مِنَ الرُّؤْيَةِ، وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ أَجْلِ سَقَمٍ أي مَرَضٍ بِهِ، يَظُنُّهُ غَيْرَ مَانِعٍ مِنَ الْإِسْتِطْعَامِ. وَلَا مَحَلَّ لِلْجُمْلَتَيْنِ، لِأَنَّهُمَا تَعْلِيلَتَانِ، فَهُمَا مُسْتَأْنَفَتَانِ.

(١) أي إنكارها الداعي إلى تكذيبه صلى الله عليه وسلم.

الفصل السابع: في إسرائه ومعراجه^(١)

صلّى الله عليه وسلم

١٠٥- يَا خَيْرَ مَنْ يَمَّمُ الْعَافُونَ سَاحَتَهُ سَغِيًّا وَفَوْقَ مُتُونِ الْآيِنِيِّ الرَّسْمِ

يا خيرَ من يَمَّمُ العافونَ، أي قصدَ الطالبونَ للمَعْرِوفِ^(٢) سَاحَتَهُ، أي حريمَ دارِهِ الواسِعِ، سَغِيًّا -حَالٌ بِمَعْنَى سَاعِينَ- أي مُسْرِعِينَ فِي المَشْيِ، وراكِبِينَ فَوْقَ مُتُونِ أي ظُهورِ الْآيِنِيِّ جَمْعُ «نَاقَةٍ» -وَأَصْلُهُ «أَنُوقَ» قَدِمَتِ الْوَاوُ ثُمَّ قَلْبَتْ بَاءً تَخْفِيفًا- الرَّسْمِ -بِضْمِ الرَّاءِ وَالسَّيْنِ- جَمْعُ «رِسْمٍ»، وَهي النَاقَةُ الَّتِي تُؤَثَّرُ فِي الْأَرْضِ مِنْ شِدَّةِ الْوَطَنِ.

١٠٦- وَمَنْ هُوَ الْآيَةُ الْكُبْرَى لِمُعْتَبِرٍ وَمَنْ هُوَ النُّعْمَةُ الْعُظْمَى لِمُعْتَمِلٍ

ويا من هُوَ الْآيَةُ الْكُبْرَى الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ الْآيَاتِ لِمُعْتَبِرٍ يَتَأَمَّلُ وَيَتَفَكَّرُ،
ويا من هُوَ النُّعْمَةُ الْعُظْمَى^(٣) الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ النُّعَمِ لِمُعْتَمِلٍ لَهَا، أي لِمُتَّخِذِهَا غَنِيمَةً.

(١) لمزيد من المعلومات حول الإسرائ والمعراج، يراجع كتاب «الكلمات الطيبات في المأثور عن الإسرائ والمعراج من الروايات» لفضيلة العلامة محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية سابقاً، والذي أصدرته «كشيدة للنشر والتوزيع» ضمن سلسلة «تراث الأزهريين» أيضاً.

(٢) يُقَالُ «عَافَ فُلَانًا» أَنَاهُ يَطْلُبُ فَضْلَهُ وَمَعْرُوفَهُ.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ» [سورة آل عمران - من الآية ١٦٤].

و«الآية» العلامة الصادقة بالدليل، يعتبر بها من يريد أن يعرف الحق من الباطل، و«النعمة» بمعنى المنعم به. وهو صلى الله عليه وسلم أكبر الآيات وأعظم النعم، لأنه دال على الحق، مُغْتَنِمٌ في جميع ما يأتي به، قال تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١)، أي تدل على دين الإسلام، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢) أي ذا رحمة لهم. واللام في «لمغتبر» و«لمغتنتم» متعلقة بما قبلها.

١٠٧- سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلًا إِلَى حَرَمٍ كَمَا سَرَى الْبَذْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ

سريت أي سرت، من حرم ليلًا أي فيه، إلى حرم. قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾^(٣)، ومن أسرى به الله تعالى فقد سرى، وكل من المسجدين يُسمى حرماً.

وذكر الليل مع السرى في النظم، والإسراء في الآية، للذين لا يكونان إلا بالليل، للإغلام بأنهما في جزء من الليل بقرينة تنكيره لأنه للتقليل، أي سريت في بغضه، كما سرى البذر - ما مضرة - أي كسرى القمر ليلة كماله في داج كائن من الظلم، أي في ليل مظلم، يقال «دجى الليل» إذا أظلم، فهو داج، ووجه الشبه سرعة السير وكمال الإنارة.

(١) سورة الشورى - من الآية ٥٢

(٢) سورة الأنبياء - الآية ١٠٧

(٣) سورة الإسراء - من الآية ١

١٠٨- وَبِثَّ تَرَقَّى إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرِكْ وَلَمْ تَرَمِ

وَبِثَّ تَرَقَّى، أَي تَصْعَدُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ مَنَازِلَ الْعُلُوِّ بِاخْتِرَاقِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ كَمَا سَيَأْتِي^(١)، إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً أَيْ مَرْتَبَةً، مِنْ -الْبَيَانِ- قَابِ أَيْ قَدْرٍ قَوْسَيْنِ طَوْلًا فِي الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(٢)، أَيْ أَنَّهُ فِي الْقُرْبِ مِنْهُ^(٣) كَقُرْبِ الْوَاحِدِ مِنْ آخِرِ بِقَدْرِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَقَلٍّ، لَا قُرْبَ مَكَانٍ، لِأَنَّهُ تَعَالَى مُنْزَهُ عَنْهُ، بَلْ قُرْبٌ تَشْرِيفٌ وَتَقَرُّبٌ مَنْزِلَةً، لَمْ تُدْرِكْ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ، وَلَمْ تَرَمِ أَيْ لَمْ يَصِلْهَا أَحَدٌ غَيْرُكَ وَلَمْ يَطْلُبْهَا.

١٠٩- وَقَدَّمْتُكَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا وَالرُّسُلِ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ

وَقَدَّمْتُكَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِم بِهَا، أَيْ بِسَبَبِ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ، وَقَدَّمْتُكَ أَيْضًا جَمِيعُ الرُّسُلِ بِهَا -بِاسْتِكَانِ السَّيْنِ- تَقْدِيمَ -بِالنَّصْبِ مَضْرُؤَ مُشَبَّهٍ بِهِ- أَيْ كَتَقْدِيمِ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمٍ فِي الْمَنْزِلَةِ. وَعَطَفُ الرُّسُلِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ^(٤).

(١) يَقُولُ الْبَاجُورِيُّ: وَبَعْدَ وَصُولِكَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ بَتَّ تَرَقَّى أَيْ تَصْعَدُ، فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَبَ لَهُ مَعْرَاجٌ، لَهُ مَرَقَاةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَمَرَقَاةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَهُوَ الَّذِي تَعْرَجُ عَلَيْهِ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ.

(٢) سُورَةُ النِّجْمِ - الْآيَاتَانِ ٨ وَ ٩

(٣) وَالْمُرَادُ هُنَا الْقُرْبُ الْمَعْنَوِيُّ كَمَا شَرَحَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ الْقَاضِي زَكَرِيَا الْأَنْصَارِيُّ.

(٤) لِأَنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٍّ، وَلَيْسَ الْعَكْسُ، وَالْمُرَادُ هُنَا تَقْدِيمُهُمْ إِيَّاهُ فِي بَيْتِ الْمَقْدَسِ حَيْثُ صَلَّى بِهِمْ إِمَامًا. رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ فِي ذِكْرِ الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ وَالْمَسِيحِ الدَّجَالِ، بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحَجَرِ وَفَرِيشٍ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَإِي، فَسَأَلْتَنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدَسِ لَمْ أَثْبِتْهَا، فَكُرِّبَ كُرْبَةً مَا كُرِّبَ مِثْلَهُ قَطُّ، قَالَ: فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرَ إِلَيْهِ، مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِذَا مُوسَى قَائِمٌ يَصْلِي، فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبُ جَعْدٍ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَوْءَةَ، وَإِذَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يَصْلِي أَقْرَبَ النَّاسِ بِهِ شَبْهًا عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ، وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يَصْلِي أَشْبَهَ النَّاسَ بِهِ صَاحِبَكُمْ يَعْنِي نَفْسَهُ، فَحَانَتْ الصَّلَاةُ فَأَمْتَمْتُهُمْ ..

١١٠- وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطَّبَاقَ بِهِمْ فِي مَوْكِبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ الْعَلَمِ

وأنت -أي والحال أنك- تَخْتَرِقُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ الطَّبَاقَ، أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾^(١) أَي بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، مَارًا بِهِمْ.

فَفِي خَبَرِ الْإِسْرَاءِ فِي مُسْلِمٍ^(٢) أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّةً فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي الثَّانِيَةِ بَعِيسَى وَيَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَفِي الثَّالِثَةِ بِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي الرَّابِعَةِ بِإِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي الْخَامِسَةِ بِهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي السَّادِسَةِ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِي السَّابِعَةِ بِإِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقَوْلُ النَّازِمِ «جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ»^(٣) أَي الَّذِينَ لَقِيَهُمْ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ لَا يُقَيَّدُوا بِذَلِكَ، بَأَنْ يَكُونُوا قَدْ أَطْلَعُوا عَلَى مُنْزَلَتِهِ هَذِهِ بِالْوَحْيِ فِي حَيَاتِهِمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾^(٤) الْآيَةُ، أَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ بِأَرْوَاحِهِمْ خَاصَّةً، أَوْ بِهَا مَعَ أَجْسَامِهِمْ، كَمَا يَذَلُّ لَهُ مَا جَاءَ فِي خَبَرِ الْإِسْرَاءِ، مِنْ أَنَّ جَمَاعَةَ الْأَنْبِيَاءِ أَتَوْا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخِرَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَأَتْنِي عَلَى مَوْلَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا أُلْهِمَهُ، فَقَالَ الْخَلِيلُ عِنْدَ ذَلِكَ: «بِهَذَا فَضَلَّكُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(٥).

(١) سورة الملك - من الآية ٣

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات وفرض الصلوات.

(٣) في قوله في البيت الذي سبق «وقدمتك جميع الأنبياء بها والرسول».

(٤) سورة آل عمران - من الآية ٨١

(٥) رواه الهيثمي في كشف الأستار.

في موكب -بَكْسَرِ الكاف- أي جمع عظيم بهيئة عظيمة، إذ كان معه جبريل وميكائيل، وما أعظمهما وأعظم هيتهما، كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ الْعِلْمِ، أي المُشَارُ إِلَيْهِ، و«الْعِلْمُ» الرُّمُحُ فِي رَأْسِهِ رَايَةً، وَمِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ، وَقَدْ كَانَ جِبْرِيلُ يَسْتَفْتِحُ فِي كُلِّ سَمَاءٍ، فَيُقَالُ لَهُ: وَمَنْ مَعَكَ؟ فيقول: مُحَمَّدٌ.

و«في موكب» حال من فاعِلِ «تَخْتَرِقُ»، أو خبر ثانٍ لـ «أَنْتَ»، وَجُمْلَةُ «كُنْتَ» صِفَةً لـ «موكب».

١١١- حَتَّى إِذَا لَمْ تَدْعُ شَاوَأَ لِمُسْتَبِقٍ مِّنَ الدُّنُوِّ وَلَا مَرْقَى لِمُسْتَنِيمٍ

حتى إذا لم تدع شاوَأَ أي تترك غايةً، لِمُسْتَبِقٍ أي ساعٍ لِيَسْبِقَ، مِنَ الدُّنُوِّ أي القُرْبِ، وَلَا مَرْقَى أي موضع رَقِيَ، أي دَرَجَةً لِمُسْتَنِيمٍ، أي لَطَالِبِ رِفْعَةٍ، مِنْ «اسْتَنِمَ» أي «علا».

و«حتى» غاية لاختراقه^(١)، و«إذا» ظرفية مجازية، وكُلٌّ مِنْ «لِمُسْتَبِقٍ» و«لِمُسْتَنِيمٍ» مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَهُ، أَوْ بِ «تَدْعُ»، وكذا «مِنَ الدُّنُوِّ»، و«مِنْ» عَلَى الْأَوَّلِ لِلْبَيَانِ وَعَلَى الثَّانِي لِلانْتِدَاءِ، و«لا مرقى» عَطْفٌ عَلَى «شَاوَأَ» بِزِيَادَةِ «لَا» لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ.

أَيِ وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطَّبَاقَ إِلَى مَقَامِ الْقُرْبِ، لَمْ تُدْرِكْ مِنْهُ مَا ذُكِرَ^(٢)، بَلْ تَجَاوَزْتَ ذَلِكَ إِلَى أَعْلَى مَقَامَاتِ الْقُرْبِ، وَهُوَ الْمُعْبَرُ عَنْهُ فِيمَا مَرَّ بِقَابِ قَوْسَيْنِ.

(١) من قوله «وأنت تخترق السبع الطباق» في البيت السابق.

(٢) أي لم تدرك ما ذكر فحسب، بل تجاوزت ذلك.

١١٢- خَفَضَتْ كُلَّ مَقَامٍ بِالإِضَافَةِ إِذْ نُودِيَتْ بِالرَّفْعِ مِثْلَ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ

خَفَضَتْ -جواب «إذا»- أي حططت كُلَّ مَقَامٍ لغيرِك مِنَ الأنبياء، بِالإِضَافَةِ إلى مَقَامِكَ^(١)، إِذْ نُودِيَتْ بِالرَّفْعِ إلى مَقَامِ قَابِ قَوْسَيْنِ الَّذِي لَمْ يَصِلْهُ غيرُكَ، مِثْلَ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ أَيِ المُشَارِ إِلَيْهِ فِيمَا أُفْرِدَ بِهِ مِنْ بَيْنِ أَفْرَادِ صُنْعِهِ.

و«بِالإِضَافَةِ» مُتَعَلِّقٌ بِ «خَفَضَتْ»، والباءُ لِلْمُصَاحَبَةِ، و«إِذْ» حَرْفٌ تَغْلِيلٍ، و«بِالرَّفْعِ» مُتَعَلِّقٌ بِ «نُودِيَتْ»، والباءُ سَبَبِيَّةٌ أَوْ حَالٌ مِنَ التَّاءِ، والباءُ لِلْمُصَاحَبَةِ، و«مِثْلَ» حَالٌ مِنْ تَاءِ نُودِيَتْ.

١١٣- كَيْمًا تَفُوزَ بِوَصْلِ أَيِّ مُسْتَتِرٍ عَنِ الْعُيُونِ وَسِرًّا أَيِّ مُكْتَتَمٍ

كَيْمًا تَفُوزَ بِالنَّصَبِ بِ «أَنْ» مُقَدَّرَةٌ، و«كَيْ» حَرْفٌ جَرٌّ بِمَعْنَى لَامِ التَّعْلِيلِ، و«مَا» مُضَرِّيَّةٌ أَوْ زَائِدَةٌ، وَمَجْمُوعُ ذَلِكَ عِلَّةٌ غَايَةٌ لـ «سَرِيَتْ»، و«بِتَّ».. إِلَى آخِرِهِ^(٢)- أَيِ فَعَلْتَ ذَلِكَ، مُنْتَهِيًّا إِلَى مَنْزِلَةِ قَابِ قَوْسَيْنِ لَتَفُوزَ بِوَصْلِ مَنْ لَمْ يَكُنْ عَنِ الْعُيُونِ، وَسِرًّا أَيِ مُكْتَتَمٍ عَنِ الْخَلْقِ بِجَرِّ «أَيِّ» فِي الْمَوْضِعَيْنِ صِفَةً لِمَا قَبْلَهَا- دَالَّةٌ عَلَى مَعْنَى الْكَمَالِ، أَيِ بَوْصَلٍ كَامِلٍ فِي الْإِسْتِتَارِ، وَيَسِرُّ كَامِلٍ فِي الْإِكْتِتَامِ^(٣).

(١) يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَاجُورِي: الْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ مُتَصَفُونَ بِالْكَمَالِ، لَكِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْمَلُ، فَمَقَامُ غَيْرِهِ مُنْخَفِضٌ بِالنِّسْبَةِ لِمَقَامِهِ الْمَرْتَفِعِ عَنْ مَقَامِ كُلِّ مَخْلُوقٍ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْمَقَامُ الْمُنْخَفِضُ مَرْتَفَعًا فِي نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا انْخَفَضَ بِالنِّسْبَةِ لِمَقَامِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) مِمَّا هُوَ مَذْكُورٌ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ.

(٣) أَيِ سِرٍّ فِي غَايَةِ الْإِكْتِتَامِ، وَأَشَارَ بِهِ إِلَى مَا تَشْرَفَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ، لِأَنَّهُ انْتَهَى بِهِ إِلَى مَكَانٍ يَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ.

وهذا السر مأخوذ مما روي أن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: يا رسول الله، ما الذي أوحى إليك ربك إذ قال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^(١)، قال: يا عائشة أتريدين أن تعلمي ما لا يعلمه جبريل ولا ميكائيل ولا نبي مرسل ولا ملك مقرب، فقالت: أسألك بأبي بكر إلا ما أعلمتني، فقال: إنني لما كنت قاب قوسين، قلت: اللهم إنك عذبت الأمم بغضهم بالحجارة، وبغضهم بالمسح، وبغضهم بالخسف، فما أنت فاعل بأمتي، قال: أنزل عليهم الرحمة من عنان السماء، وأبدل سيناتهم حسنات، ومن دعاني منهم لبيته، ومن سألني منهم أعطيته، ومن توكل علي كفيته، وفي الدنيا أستر العصاة، وفي الآخرة أشفعك فيهم^(٢).

١١٤- فحزرت كل فخار غير مشترك وجزت كل مقام غير مزدحم

فحزرت سبحانه مهلة وزاي معجمة- أي جمعت كل فخار، أي ما يفخر به من الفضائل غير مشترك فيه، وجزت -جيم وزاي معجمة- أي عبرت كل مقام غير مزدحم فيه -بفتح الحاء- و«غير» في الموضعين منصوب أو مجرور، صفة لـ «كل» أو لما أضيف إليه «كل».

(١) سورة النجم - الآية ١٠

(٢) لم نعر فيما توفر لنا من مراجع على هذه الرواية. وفي تفسيره لهذه الآية، يقول الإمام القرطبي: «ثم قيل: هذا الوحي هل هو مبهم؟ لا نطلع عليه نحن ونعبدنا بالإيمان به على الجملة، أو هو معلوم مفسر؟ قولان. وبالثاني قال سعيد بن جبیر، قال: أوحى الله إلى محمد: ألم أجذك بيتما فأوبيتك! ألم أجذك ضالا فهديتك! ألم أجذك عائلا فأغنيك! «ألم نشرح لك صدرك» • ووضعتنا عنك وزرك • الذي أنقض ظهرك • ورفقنا لك ذكرك» [سورة الشرح: الآيات ١-٤]. وقيل: أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد، وعلى الأمم حتى تدخلها أمك».

١١٥- وَجَلَّ مِقْدَارُ مَا أُوتِيَتْ مِنْ رُتَبٍ وَعَزَّ إِدْرَاكُ مَا أُوتِيَتْ مِنْ نِعَمٍ

وَجَلَّ أَي عَظُمَ مِقْدَارُ مَا أُوتِيَتْ -بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ- مِنْ رُتَبٍ، أَي مَنَاصِبَ شَرِيفَةٍ فَلَا يُحَاطُ بِهِ، وَعَزَّ إِدْرَاكُ مَا أُوتِيَتْ -بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ- أَي أُعْطِيَتْ مِنْ نِعَمٍ جَمْعُ «نِعْمَةٍ»، بِمَعْنَى مُنْعَمٍ بِهِ، أَي اِمْتَنَعَ وَاسْتَعَصَى إِدْرَاكُهُ بِكَمَالِهِ.

وَجُمْلَةُ «جَلَّ» مُسْتَأَنَفَةٌ أَوْ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا، وَكَذَا جُمْلَةُ «عَزَّ».

١١٦- بُشِّرَى لَنَا مَعَشَرَ الْإِسْلَامِ، إِنَّ لَنَا مِنَ الْعِنَايَةِ رُكْنًا غَيْرَ مُنْهَدِمٍ

بُشِّرَى مِنَ «الْبِشَارَةِ» وَهِيَ الْخَبَرُ السَّارُّ، وَبُشِّرَى خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، أَي «هَذِهِ الْمَنَاقِبُ بُشِّرَى»، أَوْ مُبْتَدَأٌ وَإِنْ كَانَ نَكْرَةً لَكُونَهَا فِي مَعْنَى نَكْرَةٍ مَوْصُوفَةٍ، لَنَا صِفَةٌ عَلَى الْأَوَّلِ وَخَبَرٌ عَلَى الثَّانِي، مَعَشَرَ الْإِسْلَامِ أَي جَمَعَ الْمُسْلِمِينَ، بِالنَّصَبِ عَلَى الْاِخْتِصَاصِ أَوْ النَّدَاءِ.

وَيَبَيِّنُ الْبُشْرَى الْمُنَادَى بِهَا بِقَوْلِهِ: إِنَّ لَنَا مِنَ الْعِنَايَةِ بِنَا فِي الْأَزَلِ رُكْنًا عَظِيمًا غَيْرَ مُنْهَدِمٍ، أَي شَرِيعَةً بَاقِيَةً غَيْرَ مَنْسُوخَةٍ^(١). و«الرُّكْنُ» مَا يَعْتَمَدُ عَلَيْهِ، و«الْإِنْهَادُ» التَّغْيِيرُ.

(١) يقول ابن العماد الأقفهسي في شرحه لهذا البيت: وأراد بالركن إما الإسلام. وإما النبي صلى الله عليه وسلم، أو القرآن، وذلك الركن هو المبشر به أو هو سبب البشارة.

١١٧- لَمَّا دَعَا اللّٰهُ دَاعِيَنَا لِطَاعَتِهِ بِأَكْرَمِ الرُّسُلِ كُنَّا أَكْرَمَ الْأُمَمِ

لَمَّا دَعَا اللّٰهُ، أَي سَمَى دَاعِيَنَا أَي النَّبِيَّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَفْعُولٌ أَوَّلُ ل «دعا» -لَكِنَّهُ سَكَنَ الْيَاءَ عَلَى قَلْبَةٍ^(١)- وَقِيلَ «دَاعِيَنَا» بِذَلٍّ مِنْ فَاعِلٍ «دعا» فَهُوَ اللّٰهُ تَعَالَى، لَطَاعَتِهِ، مُتَعَلِّقٌ بِ «دَاعِيَنَا»، أَوْ بِ «دعا»، بِأَكْرَمِ الرُّسُلِ، مَفْعُولٌ ثَانٍ ل «دعا» وَجَوَابٌ ل «ما»، كُنَّا أَكْرَمَ الْأُمَمِ عِنْدَ اللّٰهِ تَعَالَى لِأَنَّ شَرَفَ الْأُمَّةِ بِشَرَفِ نَبِيِّهَا^(٢)، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾^(٣) أَي أَنْتُمْ خَيْرُهَا.

(١) إِذْ كَانَ حَقُّهَا النَّصَبُ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ «دَاعِيَنَا».

(٢) يَقُولُ ابْنُ الْعَمَادِ الْأَفْهَاسِيُّ فِي شَرْحِ هَذَا الْبَيْتِ: لَمَّا سَمَى اللّٰهُ دَاعِيَنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَكْرَمِ الرُّسُلِ، حَيْثُ اصْطَفَاهُ مِنْ خَيْرِ الْقِبَائِلِ وَجَعَلَهُ سَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ، كُنَّا أَكْرَمَ الْأُمَمِ، شَرَفْنَا بِشَرْفِهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [سُورَةُ الْبَقَرَةِ - مِنْ الْآيَةِ ١٤٣]

وَالْوَسْطُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خِيَارُهُ.

(٣) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ - مِنْ الْآيَةِ ١١٠

الفصل الثامن: في جهاد النبي صلى الله عليه وسلم

١١٨- رَأَتْ قُلُوبَ الْعِدَا أَنْبَاءُ بَعْثِهِ كَنْبَاءُ أَجْفَلَتْ عُفْلًا مِنَ الْغَنَمِ

رَأَتْ - برأء وعين مهملّة - أي أفرغت قُلُوبَ الْعِدَا - بكسر العين وضمها والقصر - جمع «عدو» أي الكُفَّار، أَنْبَاءُ بَعْثِهِ أي أخبارُ رسالته لِغَفْلَتِهِمْ عَنْهَا، حالة كونها كَنْبَاءً أي زارة الأسد، أَجْفَلَتْ - ججم - أي أفرغت، عُفْلًا - بضم الغين الْمُعْجَمَة - جمع «غافل» - كِبَازِلٍ وَيَزَلْ - من الغنم فأسرعت في الهرب منها، ولو لم تكن غافلة عنها لما جفلت منها.

كَذَلِكَ الْكُفَّارُ، لو كانوا مُلْتَفِتِينَ إلى بعثته صلى الله عليه وسلم لَيُؤْمِنُوا بِهِ لما فرغوا منها، وفي خبر الصحيحين: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ)^(١)، وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ: (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ شَهْرَيْنِ)، وَالْمُرَادُ بِهِ مَا فِي رِوَايَةٍ: (وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ شَهْرًا أَمَامِي، وَشَهْرًا خَلْفِي)^(٢)، وَيُقَاسُ بِهِمَا الْيَمِينُ وَالشَّمَالُ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِالْخَبَرِ الْأَوَّلِ شَهْرًا مِنْ أَيِّ جِهَةٍ كَانَ بِهَا الْعَدُوُّ مِنَ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ.

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم «نصرت بالرعب مسيرة شهر»، وفي صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب، بسنده عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أمة وأمة، وأحللت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهورا ومسجدا فأبما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة».

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير بسنده عن السائب بن يزيد، وفيه: «ونصرت بالرعب شهرا أمامي وشهرا خلفي».

وَجُمْلَةُ «رَاعَتْ» مُسْتَأْنَفَةٌ، وَقَوْلُهُ «أَجْفَلْتُ» صِفَةٌ «نَبَأَةٌ»، و«غَفَلًا» مَفْعُولُ «أَجْفَلْتُ»، و«مِنَ الْغَنَمِ» صِفَةٌ لَهُ، و«مِنَ» لِلْبَيَانِ، وَقِيلَ لِلتَّبْعِيضِ.

١١٩- مَا زَالَ يَلْقَاهُمْ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ حَتَّى حَكَّوْا بِالْقَنَا لَحْمًا عَلَى وَضَمٍ

مَا زَالَ يَلْقَاهُمْ -بِالضَّمِّ وَالْإِشْبَاعِ- فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ -بِفَتْحِ الرَّاءِ- أَيِ مَكَانٍ الْاِغْتِرَاكِ، أَيِ الْاِزْدِحَامِ فِي الْحَرْبِ، حَتَّى -غَايَةً لِلْقَائِيهِ إِيَّاهُمْ- حَكَّوْا أَيِ شَابِهُوا بِالْقَنَا -بِالْقَصْرِ- جَمْعُ «قَنَاءٍ» وَهِيَ الرُّمُحُ، أَيِ بِسَبَبِ طَعْنِهِمْ بِهَا، لَحْمًا كَانِنًا عَلَى وَضَمٍ -بِمُعْجَمَةٍ- وَهُوَ مَا يَضَعُ الْقَصَابُ اللَّحْمَ عَلَيْهِ، مُعَدًّا لِمَنْ يَأْخُذُهُ. أَيِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاهَدَ الْكُفَّارَ، حَتَّى تَرَكَهُمْ قَتْلَى، مُعْدِينَ لِأَكْلِ السَّبَاعِ وَالطَّيُورِ لِحُومِهِمْ.

و«حَكَّوْا» أَصْلُهُ «حَكِيُوا»، قُلِبَتْ الْيَاءُ أَلِفًا لِتَحَرِّكَهَا وَانْفِتَاحِ مَا قَبْلَهَا، ثُمَّ خُفِضَتْ لَاتِّبَاعِ السَّاكِنِينَ.

١٢٠- وَدُّوا الْفِرَارَ، فَكَادُوا يَغْبِطُونَ بِهِ أَشْلَاءَ شَالَتْ مَعَ الْعِقْبَانِ وَالرَّحِمِ

وَدُّوا الْفِرَارَ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيِ تَمَنَّوْهُ، فَكَادُوا يَغْبِطُونَ^(١) -بِالْبِنَاءِ- لِلْفَاعِلِ -بِهِ أَشْلَاءَ- بِفَتْحِ أَوَّلِهِ وَمَنْعِ ضَرْفِهِ لِلْوَزْنِ -جَمْعُ «شَلُو» -بِكُسْرِ الشَّيْنِ- وَهُوَ الْعَضْوُ، شَالَتْ -أَيِ الْأَشْلَاءُ- أَيِ ارْتَفَعَتْ مَعَ الْعِقْبَانِ -بِكُسْرِ الْعَيْنِ- وَالرَّحِمِ، جَمْعُ «عِقَابٍ» وَ«رُحْمَةٍ» نَوْعَانِ مِنَ الطَّيْرِ، يَقَعَانِ عَلَى الْمَيِّتَاتِ يَأْكُلَانِ مِنْهَا وَيَخْمِلَانِ مِنْهَا لِفِرَاحِهِمَا.

(١) أَيِ يَحْسُدُونَ تِلْكَ الْأَشْلَاءَ لِأَنَّهُمَا وَجَدَتْ مِنْ يَفِرُ بِهَا.

وَجُمْلَةٌ «وُثُوا» مُسْتَأْنَفَةٌ، و«الْغِبْطَةُ» تَمْنَى أَنْ يَخْصُلَ لَهُ مِثْلُ مَا حَصَلَ لغيرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرِيدَ زَوَالَهَا عَنْهُ. أَي قَارِبُوا أَنْ يَتَمَنَّوْا أَنْ يَخْصُلَ لَهُمْ مِثْلُ مَا حَصَلَ لِأَغْضَاءِ، ارْتَفَعَتْ بِهَا الطُّيُورُ، لِيَتَخَلَّصُوا مِنْ جِهَادِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا يُؤْمِنُوا بِهِ.

١٢١- تَمْضِي اللَّيَالِي وَلَا يَذْرُونَ عِدَّتَهَا مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيَالِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ

تَمْضِي أَي تَذَهَبُ عَلَيْهِمُ اللَّيَالِي بِأَيَامِهَا، وَلَا يَذْرُونَ أَي يَعْلَمُونَ عِدَّتَهَا مِنْ شِدَّةِ هُمُومِهِمْ بِجِهَادِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ، مَا لَمْ تَكُنْ أَي مُدَّةٌ عَدَمَ كَوْنِ اللَّيَالِي بِأَيَامِهَا مِنْ لَيَالِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ، ذِي الْقَعْدَةِ وَذِي الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمِ وَرَجَبٍ، فَإِنَّهُمْ يَذْرُونَهَا وَعِدَّتَهَا بِإِمْسَاكِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْقِتَالِ فِيهَا. وَجُمْلَةٌ «تَمْضِي اللَّيَالِي» مُسْتَأْنَفَةٌ.

١٢٢- كَانَمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ بِكُلِّ قَرَمٍ إِلَى لَحْمِ الْعِيدَا قَرَمٍ

كَانَمَا الدِّينُ وَهُوَ الْإِسْلَامُ، وَ«مَا» زَائِدَةٌ، أَي كَانَ الْإِسْلَامُ ضَيْفٌ حَلَّ أَي نَزَلَ سَاحَتَهُمْ، أَي الْعِدَا، بِكُلِّ قَرَمٍ يَفْتَحُ الْقَافَ وَإِسْكَانَ الرَّاءِ- أَي سَيِّدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، وَالْبَاءُ لِلْمُصَاحَبَةِ أَوْ لِلتَّعْنِيَةِ، إِلَى لَحْمِ الْعِدَا أَي الْكُفَّارِ، -وَفِيهِ إِقَامَةُ الظَّاهِرِ مَقَامَ الْمُضْمَرِ- قَرَمٍ -بِكَسْرِ الرَّاءِ- أَي شَدِيدِ الشُّهُورَةِ، بِأَنْ تُصَيِّرَهُمُ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَتْلَى لَحُومًا مُعَدَّةً لِأَكْلِ الْجَوَارِحِ.

و«إِلَى» غَايَةٌ لـ «قَرَمٍ» -بِكَسْرِ الرَّاءِ- وَهُوَ صِفَةٌ لـ «قَرَمٍ» بِإِسْكَانِهَا.

١٢٣- يَجْرُ بِحَرْ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِجَةٍ يَزْمِي بِمَوْجٍ مِنَ الْأَبْطَالِ مُنْتَظِمٍ

يَجْرُ ذَلِكَ السَّيْدُ أَي يَقُودُ، بِحَرْ خَمِيسٍ أَي جَيْشاً كَالْبَحْرِ فِي تَمَوُّجِهِ
وَاهْلَاكِهِ لِلْكَفَّارِ، فَوْقَ خَيْلٍ سَابِجَةٍ أَي جَارِيَةٍ.

يَزْمِي ذَلِكَ الْجَيْشُ بِمَوْجٍ صَادِرٍ مِنَ الْأَبْطَالِ، جَمْعُ «بَطَلٍ» أَي شُجَاعٍ،
مُنْتَظِمٍ بَعْضُهُ بِنَعْصٍ لِهَيْجَانِهِ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْأَفْعَالُ الْوَاصِلَةُ لِلْكَفَّارِ بِآلَاتِ الْقِتَالِ
مِنْ طَعْنٍ وَقَتْلِ وَغَيْرِهِمَا. وَإِضَافَةُ «بَحْرٍ» إِلَى «خَمِيسٍ» مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى
الْمَوْصُوفِ كَمَا أَشْرَفْتُ إِلَيْهِ، وَسُمِّيَ «جَيْشُ خَمِيسٍ» لِأَنَّهُ خَمْسَةُ أَجْزَاءٍ: مُقَدِّمَةٌ،
وَقَلْبٌ، وَمِيمَنَةٌ، وَمِيسَرَةٌ، وَسَاقَةٌ^(١). وَبَاءُ «بِمَوْجٍ» لِلْمُصَاحَبَةِ.

١٢٤- مِنْ كُلِّ مُنْتَدَبٍ لِلَّهِ مُحْتَسِبٍ يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكَفْرِ مُضْطَلِمٍ

مِنْ كُلِّ مُنْتَدَبٍ -بِفَتْحِ الْمُهْمَلَةِ- وَهُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ «مِنَ الْأَبْطَالِ»، أَوْ صِفَةً
بَعْدَ صِفَةٍ لـ «مَوْجٍ»، أَي مَدْعُوٌّ لِلَّهِ مُحْتَسِبٍ ذَلِكَ -بِكَسْرِ السَّيْنِ- أَي طَالِبٍ بِعَمَلِهِ
مِنْ اللَّهِ تَعَالَى الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ.

يَسْطُو ذَلِكَ الْمُنْتَدَبُ أَي يَصُولُ، بِمُسْتَأْصِلٍ -بِكَسْرِ الصَّادِ- لِلْكَفْرِ أَي
لِأَهْلِهِ، مُضْطَلِمٍ لَهُمْ، مِنْ آلَاتِ الْقِتَالِ مِنْ سَيْفٍ وَغَيْرِهِ. يُقَالُ «اسْتَأْصَلَهُ» قَلَعَهُ
مِنْ أَصْلِهِ، وَ«اضْطَلَمَهُ» أَهْلَكَهُ، وَفِي الصَّحَاحِ وَالْقَامُوسِ^(٢): «الاضْطِلَامُ»
الاسْتِنْتِصَالُ. وَبَاءُ «بِمُسْتَأْصِلٍ» لِلِاسْتِعَانَةِ.

(١) الساقاة من الجيش هي المؤخرة.

(٢) صحاح اللغة للجوهري، والقاموس المحيط للفيروزآبادي، من أشهر المعاجم العربية.

١٢٥- حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ وَهِيَ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِهَا مَوْصُولَةُ الرَّحِمِ

حَتَّى مُتَعَلِّقَةٌ بِـ «يَسْطُو»^(١)، غَدَتْ -بِغَيْنٍ مُعْجَمَةٍ- أَي صَارَتْ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ، مِنْ إِضَافَةِ الْأَعْمِ إِلَى الْأَخْصِ، وَهِيَ -أَيِ الْمِلَّةُ- قَائِمَةٌ بِهِمْ، أَي بِالصَّحَابَةِ الْأَبْطَالِ، وَالْبَاءُ لِلْسَّبَبِيَّةِ أَوْ لِلْمُصَاحَبَةِ، وَجُمْلَةُ «وَهِيَ بِهِمْ» اعْتِرَاضٌ، مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِهَا مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ مَوْصُولَةُ الرَّحِمِ -بِالنَّصْبِ- خَبَرٌ «غَدَتْ»، وَ«مِنْ» لِبَتْدَاءِ الْغَايَةِ.

و «الْغُرْبَةُ» مَأْخُودَةٌ مِنْ خَبَرٍ مُسْلِمٍ: (بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا)^(٢)، أَي ظَهَرَ بَيْنَ قَوْمٍ لَا يَقُومُونَ بِهِ، فَهُوَ مَقْطُوعُ الرَّحِمِ، حَتَّى قَامَ بِهِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، فَوَصَلُوا رَحِمَهُ.

١٢٦- مَكْفُؤَةٌ أَبَدًا مِنْهُمْ بِخَيْرِ أَبِي وَخَيْرِ بَغْلٍ، فَلَمْ تَيْتَمْ وَلَمْ تَتِمَّ

مَكْفُؤَةٌ خَبَرٌ ثَانٍ لِـ «غَدَتْ» أَوْ حَالٌ مِنْ فَاعِلِهِ، أَي مَحْفُوظَةٌ أَبَدًا مِنْهُمْ أَي مِنَ الْكُفَّارِ، بِخَيْرِ أَبِي وَخَيْرِ بَغْلٍ أَي زَوْجٍ، وَهُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣)، فَلَمْ تَيْتَمْ أَيِ الْمِلَّةُ مِنْ جِهَةِ الْأَبِ، وَلَمْ تَتِمَّ مِنْ جِهَةِ الْبَغْلِ.

وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْفَقَ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الْأَبِ عَلَى أَوْلَادِهِ، وَأَقَوْمُ بِمُصَالِحِهِمْ مِنَ الْبَغْلِ عَلَى زَوْجَاتِهِ.

(١) فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ.

(٢) صَحِيحٌ مُسْلِمٌ، كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا.

(٣) وَذَلِكَ مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أُؤْتُوا بِالْإِيمَانِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [سُورَةُ

الْأَحْزَابِ - مِنْ الْآيَةِ ٦]، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ

الْفَرَاغِ، بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَمَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دِينٌ

وَلَمْ يَتْرِكْ وَفَاءً فَعَلِينَا قَضَاؤَهُ وَمَنْ تَرَكَ مَا لَا فَلَورَثَهُ).

وباء «بخير» للإلصاق، و«تيتم» -يفتح الفوقية- مضارع «يتم» -يكسرها- يُقال «يتم الولد ييتم» إذا مات أبوه وهو صغير، و«تتم» مضارع «امت»، يُقال: «امت المرأة تيتم» -كباغت تبيع- إذا خلت من زوجها، ومنه: «وأنكحوا آلأيتامى منكم»^(١)، وجعلنا «فلم تيتم، ولم يتم» معطوفتان على جملة «وهي بهم».

١٢٧- هُمُ الْجِبَالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ مَاذَا رَأَى مِنْهُمْ فِي كُلِّ مُضْطَمٍّ

هُمُ أي الصحابة رضي الله تعالى عنهم الجبال، أي كالجبال في الصلابة والصبر في الحرب. والجملة جواب ما يُقال: مَنْ هؤلاء الذين صارت بهم الملة إلى هذه الحالة؟، فيقال: هُمُ الجبال، فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ في الحرب:

ماذا -بدل اشتمال من ضمير «عنهم» وهو استفهام فهو مُفَرَّدٌ، أو «ما» استفهامية و«ذا» موصول، فهو جملة- رَأَى مِنْهُمْ -بالضم والإشباع- من الشدة في كُلِّ مُضْطَمٍّ، أي مكان اضطدام في الحرب، فَإِنَّهُ -أعني مُصَادِمَهُمْ- يُخْبِرُكَ بِهِ وَلَا يَسَعُهُ كَتْمُهُ.

و«المُصَادِمَةُ» اضْطِكَاكُ الصَّفِينِ، و«مِنْ» و«فِي» مُتَعَلِّقَانِ بِ «رَأَى»، و«مِنْ» لابتداء الغاية، وَجُمْلَةٌ «فَسَلْ» معطوفة على جملة «هُمُ الْجِبَالُ» وهو مِنْ عَطْفِ الْإِنْشَاءِ عَلَى الْإِخْبَارِ.

١٢٨- وَسَلَّ حُنَيْنًا، وَسَلَّ بَذْرًا، وَسَلَّ أَحَدًا فُصُولَ حَتَفٍ لَهُمْ أَذْهَى مِنَ الْوَحْمِ

وَسَلَّ حُنَيْنًا، هو وادٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، وَسَلَّ بَذْرًا، هو موضعٌ ما بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَسَلَّ أَحَدًا، هو جَبَلٌ بِقُرْبِ الْمَدِينَةِ، أَيِ اسْتَأْذَنَ أَهْلَ هَذِهِ الْأَمْكِنَةِ^(١).

فُصُولَ حَتَفٍ -بِصَادٍ وَحَاءٍ مُهْمَلَتَيْنِ وَفَوْقِيَّةٍ- أَيِ أَنْوَاعٍ هَلَاكِ، وَالْمُضَافُ بَدَلٌ مِنْ «حُنَيْنًا» وَ«بَذْرًا» وَ«أَحَدًا»، أَوْ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مَخْذُوفٌ، أَيِ فِيهِ الْأَمْكِنَةُ الثَّلَاثَةُ أَنْوَاعٍ هَلَاكِ لَهُمْ أَيِ لِلْكَفَّارِ، أَذْهَى مِنَ الْوَحْمِ، أَيِ أَشَدُّ إِبْصَابَةً مِنَ الْوَبَاءِ، انْصَبَّتْ عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ الصَّحَابَةِ رِضَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُمْ. وَ«لَهُمْ» وَ«أَذْهَى» صِفَتَانِ لِ «حَتَفٍ».

١٢٩- الْمُصْدِرِي الْبَيْضِ حُمْرًا بَعْدَمَا وَرَدَتْ مِنَ الْعِدَا كُلِّ مُسَوِّدٍ مِنَ اللَّمَمِ

الْمُصْدِرِي -بِضَمِّ الْمِيمِ- جَمْعُ سَلَامَةٍ لِ «مُصْدِرٍ» اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ «أَصْدَرَ»، يُقَالُ: «أَصْدَرَ وَصَدَرَ عَنِ الْمَاءِ» أَيِ رَجَعَ^(٢)، وَأَصْدَرَ غَيْرُهُ أَيِ رَجَعَهُ، وَهُوَ مَنْصُوبٌ بِإِضْمَارِ «أَمْدَحَ» أَيِ الصَّحَابَةِ، الْبَيْضِ أَيِ السُّيُوفِ الْمَضْقُولَةِ، وَهُوَ مَجْرُورٌ بِإِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَيْهِ، وَيَجُوزُ نَصْبُهُ كَمَا قُرِئَ بِهِ فِي قَوْلِهِ: «وَالْمُقِيمِينَ آلِصَلَاةٍ»^(٣)، وَخُذِفَتِ النُّونُ عَلَيْهِ تَخْفِيفًا^(٤)، وَعَلَى الْأَوَّلِ لِلْإِضَافَةِ حُمْرًا مِنَ الدَّمَاءِ بَعْدَ مَا وَرَدَتْ أَيِ الْبَيْضِ، مِنَ الْعِدَا أَيِ مِنَ الْكَفَّارِ، مُتَعَلِّقٌ بِ «وَرَدَتْ»، أَوْ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ كُلِّ مُسَوِّدٍ كَائِنٍ مِنَ اللَّمَمِ، جَمْعُ «لَمَةٍ» وَهُوَ الشَّعْرُ الْمُجَاوِرُ شَحْمَةً

(١) عَلَى غَرَارِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْ آلَافَ نِعْمَةٍ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ - مِنْ الْآيَةِ ٨٢].

(٢) وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ [سُورَةُ الْقَصَصِ - مِنْ الْآيَةِ ٢٣].

(٣) سُورَةُ النِّسَاءِ - مِنْ الْآيَةِ ١٦٢

(٤) فَقَالَ «الْمُصْدِرِي الْبَيْضِ» وَلَمْ يَقُلْ «الْمُصْدِرِينَ الْبَيْضِ».

الأذن، و«من» فيه زائدة، إذ المعنى على الإضافة، و«حُمراً» حال من «البيض»، و«ما» مضدرية، و«من» الأولى لا ابتداء الغاية، و«كل» مفعول «وزنت».

١٣٠- والكاتبين بِسْمِ الخط، ما تَرَكْتَ أَقْلَامَهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنْعَجِمٍ

والكاتبين - عطف على «المضدري» - أي الطاعنين بِسْمِ الخط وهي الرماح، جمع «أسمر»، و«الخط» شجرها، وقيل موضع باليمامة تجلب إليه الرماح من الهند، وعليه الجوهري^(١).

ما تَرَكْتَ أَقْلَامَهُمْ أي أسنة رماحهم حَرْفَ جِسْمٍ من الكفار، أي طريقه غير مُنْعَجِمٍ، أي بلا طعن بل طعنته، يُقال «أعجمت الكتاب» إذا نقطته، ومعناه أزلت عجمته، و«العجم» النقط^(٢)، وباء «يسمر» للاستعانة، و«ما» نافية، و«غير» صفة لـ «حرف» أو حال منه، وجُملة «ما تَرَكْتَ» حال من «سمر».

١٣١- شَأْيُ السِّلَاحِ لَهُمْ سِيَمًا تُمَيِّزُهُمْ وَالْوَرْدُ يَمْتَازُ بِالسِّيَمَا مِنْ السَّلَمِ

شَأْيُ السِّلَاحِ أي تاميه، وقيل حاذيه من «الشوكة» أي الحدة، وتركيبه كتركيب «المضدري البيض»، فيأتي فيه ما مر، ثُمَّ لَهُمْ سِيَمًا أي علامة تُمَيِّزُهُمْ

(١) هو إسماعيل بن حماد، أبو نصر الجوهري (٣٩٣-٤٠٠ هـ)، من أئمة اللغة، اشتهر بمعجمه «الصاح» أو «صاح اللغة وتاج العربية».

(٢) يقول الإمام الباجوري في شرحه: وفي هذا البيت لطائف، منها تشبيه الصحابة بالكتابة، وأسنة رماحهم بالأقلام، وذلك دليل على غاية إحكامهم للطعن بها، حتى إنها في أيديهم كالأقلام في أيدي الكتبة، وليس عليهم كبير مشقة في التصرف بها، ومنها الإشارة إلى أنهم لا يطعنون طعنة إلا في محلها، كما لا تنقط الكتبة نقطة إلا في محلها، ومنها الإشارة إلى أنهم أعجموا حروف أجسام الكفار، ليميزوا من المسلمين.

عن غيرهم^(١)، والوردُ يمتازُ بالسَّيما من السَّلَم، وهو شجرٌ يُشبهُ شجرَ الوردِ، ويمتازُ الوردُ عنه، أي عن زهره، بحُسنِ الخلقةِ وبهاءِ المنظرِ وطيبِ الرائحةِ.

وأصلُ «شاكِي» على القولِ بأنَّهُ من الشُّوكَةِ «شانكٌ»، بهَمْزةٌ مقلوبةٌ عن واوٍ فنقلت مكانَ لامِهِ وبالعكسِ، ثُمَّ قُلِبَتْ ياءٌ لِنَطرِها بعدَ كسرةٍ، فَسَكَنْتْ لِثِقَلِ الحَرَكَةِ عليها، فَانْتَقَى ساكِنا: الياءُ والتتوين، فَخَفِضَتْ لالتقاءِ الساكِنَيْنِ، كما في «قاص». و«لهم» خبرُ «سيما»، والجُمْلَةُ خبرُ «شاكِي»، والباءُ للسَّببيةِ، و«من» للفصلِ، نحو «لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ»^(٢).

١٣٢- تُهْدِي إِلَيْكَ رِيَّاحُ النَّصْرِ نَشْرَهُمْ فَتَحَسِبُ الزَّهْرَ فِي الْأَكْمَامِ كُلَّ كَمِي

تُهدِي -بِضَمِّ التَّاءِ- إِلَيْكَ رِيَّاحُ النَّصْرِ أي التَّأْيِيدِ، نَشْرَهُمْ -بِالضَّمِّ والإشباعِ- أي خَبَرَهُم العَجِيبَ الشَّأْنَ. وَأَصْلُ النَّشْرِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ، وإضافةُ الرِّياحِ من إضافةِ الأعمُ إلى الأخصِ -وياؤها مُنْقَلِبَةٌ عن واوٍ لِكَسْرَةِ ما قَبْلَها، كما في مُفْرَدِها وهو الرِّيحُ- وَجُمْلَةُ «تُهدِي» مُستأنَفَةٌ، وعُطِفَ عليها: فَتَحَسِبُ أَنْتَ، أي تَظُنُّ الزَّهْرَ فِي الْأَكْمَامِ جَمْعُ «كَمٍ» -بِكَسْرِ الكافِ- وهو غُلَافُهُ، كُلُّ كَمِي أي شِجَاعٍ مِنْهُمْ في سِلَاحِهِ، مِنْ «كَمِي جَسَدَهُ بِالسِّلَاحِ» سَتَرَهُ بِهِ، وهذا مفعولٌ أولٌ لـ «تَحَسِبُ»، وما قَبْلَهُ الثَّانِي، و«في الْأَكْمَامِ» حالٌ من «الزَّهْرِ».

والزَّهْرُ في أَكْمَامِهِ أَحْسَنُ مَنْظَرًا، وَأَطْيَبُ رَائِحَةً مِنْهُ خَارِجَ الْأَكْمَامِ، وَأَصْلُ «كَمِي» كَمِي بِتَشْدِيدِ الياءِ، بوزنِ فَعِيلٍ، خَفِضَتْ الياءُ السَّاكِنَةُ وَسَكَنْتْ الْمُتَحَرِّكَةُ لِلْوَقْفِ.

(١) مأخوذ من قوله تعالى في وصف المؤمنين ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [سورة الفتح - من الآية ٢٩].

(٢) سورة الأنفال - من الآية ٣٧

١٣٣- كَانَهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبْتُ رِيَاءٍ مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لَا مِنْ شِدَّةِ الْحُزْمِ

كَأَنَّهُمْ حَالَةً كَوْنِهِمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبْتُ رِيَاءٍ، جَمْعُ «رِيوة» -مَثَلُ الرِّاءِ- وهي ما ارتفع من الأرض، وَنَبْتُهَا أَثْبَتُ فِي الْأَرْضِ مِنْ نَبْتٍ غَيْرِهَا، لَطُولُ عُرْوَقِهِ حَتَّى تَصِلَ إِلَى الْمَاءِ، بِخِلَافِ نَبْتٍ غَيْرِهَا، فَهَمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ أَثْبَتُ مِنْ غَيْرِهِمْ بِكَثِيرٍ، مِنْ أَجْلِ شِدَّةِ الْحَزْمِ -يَكْسِرُ الشَّيْنِ وَفَتْحُ الْحَاءِ وَسُكُونُ الزَّي- أي قوة الثَّباتِ، لَا مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ -يَفْتَحُ الشَّيْنِ وَضَمُّ الْحَاءِ وَالزَّي- جَمْعُ «حِزَامٍ» وهو ما يُشَدُّ بِهِ السَّرَجُ أَوْ غَيْرُهُ عَلَى ظَهْرِ الدَّابَّةِ.

١٣٤- طَارَتْ قُلُوبُ الْعِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقًا فَمَا تَفَرَّقَ بَيْنَ الْبَهْمِ وَالْبَهْمِ

طَارَتْ قُلُوبُ الْعِدَا -جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ- أي اضْطَرَبَتْ مِنْ بَأْسِهِمْ، أي مِنْ أَجْلِ شِدَّتِهِمْ فِي الْحَرْبِ، فَرَقًا -يَفْتَحُ الْفَاءُ وَالرَّاءُ- أي فَرَعًا، وهو مَفْعُولٌ لَهُ أَوْ تَمَيِّزٌ مِنْ نَسَبَةِ الطَّيْرَانِ إِلَى الْقُلُوبِ، فَمَا تَفَرَّقَ -بِضْمِ التَّاءِ وَفَتْحُ الْفَاءِ وَكُسْرُ الرَّاءِ الْمُشَدَّدَةِ- أي الْقُلُوبُ بَيْنَ الْبَهْمِ -يَفْتَحُ الْبَاءُ وَسُكُونُ الْهَاءِ- وهي السُّخَالُ^(١)، جَمْعُ «بَهْمَةٍ»، وَالْبَهْمِ -بِضْمِ الْبَاءِ وَفَتْحُ الْهَاءِ- وَهُمْ الشُّجْعَانُ، جَمْعُ «بَهْمَةٍ» بِضْمِ الْبَاءِ وَسُكُونِ الْهَاءِ.

وَالْمَعْنَى أَنَّ الْفَرَعَ اشْتَدَّ بِالْقُلُوبِ إِلَى أَنْ صَارَتْ لَا تُمَيِّزُ بَيْنَ الْمَذْكُورَيْنِ، وَ«مَا» نَافِيَةٌ، وهي مع ما بعدها مَغْطُوفٌ عَلَى «طَارَتْ».

(١) السُّخَالُ جمع «سُخْلَةٍ» وهو ولد الضأن والمعز ساعة يولد.

١٣٥- وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نُصْرَتُهُ إِنَّ تَلْقَاهُ الْأَسَدُ فِي آجَامِهِمَا تَجِمُ

ومن تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نُصْرَتُهُ^(١) على أعدائِهِ، إِنَّ تَلْقَاهُ الْأَسَدُ وهي من أعْظَمِ الْأَعْدَاءِ فِي آجَامِهَا أي غاباتها، جَمْعُ «أَجْمَةٍ»، وهي فيها أَجْرًا مِنْهَا فِي غَيْرِهَا، تَجِمُ بِكُسْرِ الْجِيمِ - مُضَارِعُ «وَجِمَ»، أي تَسْكُنُ وَلَا تَتَحَرَّكُ خَوْفًا مِنْهُ^(٢).

وَالشَّرْطُ الثَّانِي وَجَوَابُهُ جَوَابُ الْأَوَّلِ، وَ«نُصْرَتُهُ» اسْمُ «تَكُنْ»، وَخَبَرُهُ «بِرَسُولِ

اللَّهِ».

١٣٦- وَلَنْ تَرَى مِنْ وَلِيٍّ غَيْرِ مُنْتَصِرٍ بِهِ، وَلَا مِنْ عَدُوٍّ غَيْرِ مُنْقَصِمٍ

وَلَنْ تَرَى مِنْ وَلِيٍّ غَيْرِ مُنْتَصِرٍ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِ، وَلَا تَرَى مِنْ عَدُوٍّ لَهُ غَيْرِ مُنْقَصِمٍ بِالْقَافِ - أي مُنْكَسِرٍ، بَلْ كُلُّ وَلِيٍّ بِهِ مُنْتَصِرٌ، وَكُلُّ عَدُوٍّ لَهُ مُنْكَسِرٌ.

و«مِنْ» فِي الْمَوْضِعَيْنِ زَائِدَةٌ لَتَنْصِيصِ الْعُمُومِ، وَ«غَيْرِ» كَذَلِكَ بِالْجَزْءِ صِفَةٌ لِمَا قَبْلُهَا عَلَى لَفْظِهِ، وَبِالنَّصْبِ صِفَةٌ لَهُ عَلَى مَخْلِهِ، أَوْ حَالٌ مِنْهُ وَإِنْ كَانَ نَكْرَةً لَوْ قَوَّعَهُ

(١) يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَاجُورِيُّ فِي شَرْحِهِ: وَلَا تَكُونُ النُّصْرَةُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا بِاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ، وَتَرْكِ مَا كَانَ عَلَى خِلَافِ شَرِيعَتِهِ، وَذَلِكَ هُوَ تَقْوَى اللَّهِ، وَالْحَامِلُ عَلَيْهَا خَوْفُ اللَّهِ، وَمَنْ خَافَ اللَّهُ خَافَ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى الْأَسَدُ فِي آجَامِهَا، فَمَنْ حَصَلَتْ لَهُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ طَارَتْ قُلُوبُ الْعَدَا مِنْ بَاسِهِ، وَسَلِمَ مِنْ أَعْدَائِهِ.

(٢) يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى قِصَّةِ سَفِينَةِ مُوَلَّى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْأَسَدِ وَالَّتِي أَوْرَدَهَا الْبِزَارُ فِي مُسْنَدِهِ، وَالبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ، وَالطَّيْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ، وَالْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ فِي الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ، وَاللَّفْظُ لَهُ، بِسَنَدِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدَرِ، عَنْ سَفِينَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَرِهْتُ الْبَحْرَ فِي سَفِينَةٍ، فَكَسَرْتُ بَنَّا فَرَكِبْتُ لَوْحًا مِنْهَا، فَطَرَحَنِي فِي أَجْمَةٍ، فَبِهَا الْأَسَدُ، فَلَمْ يَرْعَنِ إِلَّا بِي، فَقُلْتُ: يَا أَبَا الْحَارِثِ، أَنَا سَفِينَةُ مُوَلَّى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَضَرَبَنِي بِمَنْكَبِهِ وَطَاطَأَ رَأْسَهُ، وَجَعَلَ يَغْمِزُنِي بِمَنْكَبِهِ، ثُمَّ مَشَى مَعِي، حَتَّى أَقَامَنِي عَلَى الطَّرِيقِ، ثُمَّ ضَرَبَنِي بِيَدِهِ، وَهُمْ هُمْ سَاعَةٌ، فَرَأَيْتُ أَنَّهُ يُوَدِّعُنِي». وَسَفِينَةُ هَذَا خَادِمُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْمُهُ «قَيْسٌ» لَكِنَّ الرُّسُولَ سَمَّاهُ «سَفِينَةَ» مُدَاعِبَةً لَهُ حَيْثُ كَانَ يَحْمِلُ أَمْتَعَتَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي السَّفَرِ.

بغذ النفي، وباؤه للسببية، أو للمصاحبة له صلى الله عليه وسلم، كما في حق الصحابة رضي الله تعالى عنهم، أو لبنته كما في حق غيرهم.

١٣٧- أَحَلَّ أُمَّتَهُ فِي حِرْزٍ مِلَّتِهِ كَاللَّيْثِ حُلَّ مَعَ الْأَشْبَالِ فِي أَجْمٍ

أَحَلَّ أَي أَنْزَلَ أُمَّتَهُ فِي حِرْزٍ مِلَّتِهِ، وَهُوَ مَا يَحْفَظُهُمْ -بِاتِّبَاعِهِمْ لَهَا- عَنْ نَارِ الْكُفْرِ، كَاللَّيْثِ أَي الْأَسَدِ، حَالَةً كَوْنَهُ حُلَّ مَعَ الْأَشْبَالِ، جَمْعُ «شَيْلٍ» وَهُمْ أَوْلَادُهُ، فِي أَجْمٍ -بِفَتْحَتَيْنِ- جَمْعُ «أَجْمَةٍ» وَهِيَ الْغَابَةُ، حِفْظًا لَهَا (١) عَمَّنْ يَتَعَرَّضُ لَهَا، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَالْأَبِ لِأُمَّتِهِ فِي شَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَ«كَاللَّيْثِ» حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ «أَحَلَّ».

١٣٨- كَمْ جَدَلْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ مِنْ جَدِلٍ فِيهِ، وَكَمْ خَصَمَ الْبُرْهَانُ مِنْ خَصِمٍ

كَمْ جَدَلْتُ -بِتَشْدِيدِ الدَّالِ- أَي قَطَعْتُ كَلِمَاتُ اللَّهِ وَهِيَ الْقُرْآنُ، مِنْ جَدِلٍ -بِكَسْرِ الدَّالِ- أَي شَدِيدِ الْجِدَالِ فِيهِ، أَي فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَمْ خَصَمَ (٢) -بِتَشْدِيدِ الصَّادِ- الْبُرْهَانُ أَي الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ فِيهِ، مِنْ خَصِمٍ -بِكَسْرِ الصَّادِ- أَي شَدِيدِ الْخِصَامِ.

و«كَمْ» فِي الْمَوْضِعَيْنِ خَبَرِيَّةٌ بِمَعْنَى كَثِيرًا، وَالْمَجْرُورُ بِ«مِنْ» فِي الْمَوْضِعَيْنِ تَمْيِيزٌ لَهَا.

(١) أَي لِهَذِهِ الْأَشْبَالِ.

(٢) صِيغَةُ مِبَالِغَةٍ مِنْ «خَصِمَ» بِمَعْنَى غَلِبَهُ فِي الْخِصَامِ.

١٣٩- كَفَّاكَ بِالْعِلْمِ فِي الْأُمِّي مُعْجَزَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ فِي الْيَتَمِ

كفَّاكَ أيها الطالبُ لمُعْجَزَةٍ بِالْعِلْمِ فِي الْأُمِّي - وهو مَنْ لَمْ يَكْتُبْ وَلَا تَعَلَّمَ مِنْ مُعَلِّمٍ - مُعْجَزَةً، تَمَيِّزٌ لِلنَّسَبَةِ فِي «كُفَى» وَيَتَعَلَّقُ بِهَا، أَوْ يَكْفِي قَوْلُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَهِيَ زَمَانٌ لَا عِلْمَ فِيهِ، وَالتَّأْدِيبِ - بِالْجَزْ - عَطَفَ عَلَى «الْعِلْمِ»، فِي الْيَتَمِ بَضْمُ التَّاءِ لُغَةً فِي سُكُونِهَا - مُضَدَّرٌ «يَتَمُّ».

وَتَقَدَّمَ أَنَّ الْيَتِيمَ مَنْ مَاتَ أَبُوهُ، وَهُوَ صَغِيرٌ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَاتَ أَبُوهُ قَبْلَ وَلَادَتِهِ، وَقِيلَ بَعْدَهَا، وَتَرَبَّى فِي كِفَالَةِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ مُؤَدَّباً، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ أَدْبَنِي فَأُخْسَنَ تَأْدِيبِي)^(١).

و «بِالْعِلْمِ» فَاعِلٌ «كُفَى» بِزِيَادَةِ الْبَاءِ، وَزِيَادَتُهَا فِي فَاعِلِ «كُفَى» كَثِيرٌ، وَ«فِي الْأُمِّي» مُتَعَلِّقٌ بِ «الْعِلْمِ» أَوْ حَالٌ مِنْهُ أَوْ صِفَةٌ لَهُ، وَيُقَالُ بِمَثَلِ ذَلِكَ «فِي الْيَتَمِ» مَعَ «التَّأْدِيبِ»، وَ «التَّأْدِيبِ» مُضَدَّرٌ مِنَ الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ، لِيَكُونَ صِفَةً لِلنَّبِيِّ، وَتَرَكَ «مُعْجَزَةً» بَعْدَ قَوْلِهِ «الْيَتَمِ» لِلْعِلْمِ بِهَا مِمَّا قَبْلَ، وَأَرَادَ بِهَا^(٢) مُجَرَّدَ الْأَمْرِ الْخَارِقِ لِلْعَادَةِ، وَإِنْ اُعْتَبِرُوا فِيهَا مَعَ ذَلِكَ قَرْنَهُ بِالتَّحْدِيدِ، أَيْ دَعَايَ الرِّسَالَةِ مَعَ عَدَمِ الْمُعَارَضَةِ^(٣) مِنَ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ.

(١) رواه ابن السمعاني في «أدب الإملاء».

(٢) أي بالمعجزة، وقد عرقها الإمام الباجوري في شرحه على جوهره التوحيد بقوله: واعلم أن المعجزة لغة مأخوذة من العجز، وهو ضد القدرة، وغرفاً: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي الذي هو دعوى الرسالة أو النبوة مع عدم المعارضة.

(٣) المقصود بالمعارضة هنا: الإتيان بمثل ما جاء به الرسول.

الفصل التاسع: في التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم

١٤٠- خَدَمْتُهُ بِمَدِيحِ اسْتَقِيلُ بِهِ ذُنُوبَ عُمْرٍ مَضَى فِي الشَّعْرِ وَالْخِدَمِ

خَدَمْتُهُ أَي مَدَحْتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَدِيحٍ، وَهُوَ هَذَا النُّظْمُ، وَقَدْ أَخْلَصْتُ فِيهِ النَّيَّةَ، اسْتَقِيلُ أَي أَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُقِيلَنِي ^(١) بِهِ أَي بِسَبَبِهِ، ذُنُوبَ عُمْرٍ مَضَى فِي الشَّعْرِ وَالْخِدَمِ ^(٢) لِأَبْنَاءِ الدُّنْيَا بِمَدْحٍ وَغَيْرِهِ. وَجُمْلَةُ «اسْتَقِيلُ» حَالٌ مِنْ تَاءٍ «خَدَمْتُهُ»، وَ«ذُنُوبَ» مَفْعُولٌ «اسْتَقِيلُ».

١٤١- إِذْ قَلْدَانِي مَآ تَخْشَى عَوَاقِبُهُ كَأَنِّي بِهِمَا هَدَيْتِي مِنَ النَّعَمِ

إِذْ تَغْلِيلِيَّةٌ، قَلْدَانِي أَي الشَّعْرُ وَالْخِدَمُ مَا تَخْشَى عَوَاقِبُهُ وَهُوَ الْأَثَامُ، وَعَوَاقِبُهُ أَنْوَاعُ الْعَذَابِ، أَي جَعَلَهُ كَالْقِلَادَةِ فِي عُنُقِي، كَأَنِّي بِهِمَا أَي بِسَبَبِهِمَا هَدَيْتِي مِنَ النَّعَمِ، وَهِيَ الْإِبْلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، وَمِنْ شَأْنِ الْهَدْيِ أَنْ يُقْلَدَ بِتَغْلِيلِ شَيْءٍ فِي عُنُقِهِ، لِيُعْلَمَ أَنَّهُ هَدْيٌ، فَلَا يُتَعَرَّضُ لَهُ، ثُمَّ يُنَحَرُ.

و«بِهِمَا» حَالٌ مِنْ «هَدَيْ» أَوْ مِنْ اسْمِ «كَانَ»، وَالْعَامِلُ التَّشْبِيهُ، وَ«مِنْ» لِلتَّبْعِيضِ.

(١) أَي يَصْفَحُ وَيَتَجَاوَزُ عَنِّي. يُقَالُ «أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَتَهُ» صَفَحَ عَنْهُ وَتَجَاوَزَ.

(٢) الْخِدَمُ بِكَسْرِ الْخَاءِ جَمْعُ «خِدْمَةٍ» مِنْ «خَدِمَ يَخْدُمُ» أَي قَامَ بِحَاجَتِهِ وَكَانَ تَحْتَ تَصَرُّفِهِ.

١٤٢- أَطَعْتُ غَيَّ الصَّبَا فِي الْحَالَتَيْنِ، وَمَا حَصَلْتُ إِلَّا عَلَى الْآثَامِ وَالنَّدَمِ

أَطَعْتُ غَيَّ الصَّبَا^(١) فِي الْحَالَتَيْنِ، أَيِ حَالَتَيِ الشَّغَرِ وَالخِدَمِ، وَمَا حَصَلْتُ إِلَّا عَلَى الْآثَامِ مِنْ جِهَتَيْهِمَا، وَالنَّدَمِ عَلَيْهِمَا، الَّذِي هُوَ تَوْبَةٌ.

وَجُمْلَةُ «أَطَعْتُ» مَفْسُورَةٌ لـ «ذُنُوبٍ»^(٢) أَوْ مُسْتَأْنَفَةٌ، وَجُمْلَةُ «مَا حَصَلْتُ» مَغْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ «أَطَعْتُ».

١٤٣- فَيَا خَسَارَةَ نَفْسٍ فِي تِجَارَتِهَا — لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بِالدُّنْيَا وَلَمْ تَسْمِ

فِيَا خَسَارَةَ نَفْسٍ، فِيهِ مَعْنَى التَّعْجُبِ^(٣)، أَيِ مَا أَخْسَرَهَا فِي تِجَارَتِهَا، وَهِيَ أَنَّهَا لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بِالدُّنْيَا أَيِ لَمْ تَأْخُذْهُ بِذَلِكَ، وَلَمْ تَسْمِ^(٤) أَيِ لَمْ تَتَعَرَّضْ لِأَخْذِهِ، بَلْ أَخَذَتْ الدُّنْيَا وَتَرَكَّتِ الدِّينَ الَّذِي تَنْجُو بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَهِيَ خَاسِرَةٌ فِي ذَلِكَ خُسْرَانًا بَيْنًا، وَكَأَنَّهُ عَنِ نَفْسِهِ بِاتِّبَاعِهِ الشَّغَرَ وَالخِدَمَ، وَنِدَاءُ الْخَسَارَةِ مُجَازٌ كَمَا لَوْحَتْ لَهُ، أَيِ هَذَا أَوَانُكَ فَاحْضَرِي.

و«فِي تِجَارَتِهَا» مُتَعَلِّقٌ بـ «خَسَارَةَ»، وَجُمْلَةُ «لَمْ تَشْتَرِ» صِفَةٌ لـ «نَفْسٍ»، وَالْبَاءُ لِلْعَوْضِ كَمَا أُشْرِتْ إِلَيْهِ، نَحْوُ «أَشْتَرَيْتُ الْفَرَسَ بِأَلْفٍ».

(١) الْغَيُّ ضِدُّ الْهُدَى، وَأَضْيَفَ لِلصَّبَا لِأَنَّ الصَّبَا يَدْعُو إِلَيْهِ، فَهُوَ زَمَنُ الْجَهْلِ وَالْبَطَالَةِ.

(٢) فِي الْبَيْتِ قَبْلَ السَّابِقِ، رَقْمُ ١٤٠.

(٣) وَالْعَرَبُ مِنْ عَادَتِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا اسْتَعْظَمُوا شَيْئًا وَتَعَجَّبُوا مِنْهُ، نَادَوْهُ لِيَحْضُرَ.

(٤) مِنْ «سَامِ السَّلْعَةِ يَسُومُهَا سَوْمًا» تَعَرَّضَ لِشِرَائِهَا.

١٤٤- وَمَنْ يَبِيعَ عَاجِلًا مِنْهُ بِأَجَلَةٍ يَبْنَ لَهُ الْغَنُّ فِي بَيْعٍ وَفِي سَلَامٍ

وَمَنْ يَبِيعَ عَاجِلًا مِنْهُ أَيَّ مِنَ الدِّينِ، بَأَن يُعْطِيَهُ بِدُنْيَا أَجَلَةٍ قَدْ تَخَصَّلَ لَهُ، يَبْنَ أَيَّ يَظْهَرُ لَهُ الْغَنُّ فِي بَيْعٍ وَفِي سَلَامٍ، حَيْثُ أُعْطِيَ مُعْجَلًا بِمَوْجَلٍ قَدْ لَا يَخَصَّلُ لَهُ^(١).

وفي نسخة بدل الشطر الأول «ومن يبيع عاجلاً منه بعاجله»، أي ثواباً له في الآخرة المحققة الباقية، بشيء يأخذه من الدنيا الذاهية^(٢).

١٤٥- إِنْ آتَ ذَنْبًا فَمَا عَهْدِي مُنْتَقِضٍ مِنَ النَّبِيِّ، وَلَا حَبْلِي مُنْصَرِّمٍ

إِنْ آتَ ذَنْبًا، بَعْدَ مَا مَرَّ مِنْ تَوْبَتِي بِالنَّدَمِ عَلَى الشُّعْرِ وَالْخَدَمِ، بَأَن عُدْتُ إِلَيْهِمَا، فَمَا عَهْدِي وَهُوَ عَهْدُ الْإِيمَانِ بِمُنْتَقِضٍ مِنَ النَّبِيِّ بِذَلِكَ، لِأَنَّهُ نَقَضَ التَّوْبَةَ بِارْتِكَابِ الذَّنْبِ لَا يَنْقُضُ عَهْدُ الْإِيمَانِ^(٣)، وَلَا حَبْلِي أَيَّ وَصْلِي بِالنَّبِيِّ بِمُنْصَرِّمٍ أَيَّ مُنْقَطِعٍ بِذَلِكَ أَيْضًا، وَإِنْ كَانَ مِنْ شَأْنِ الذَّنْبِ قَطَعَ الْمَوَدَّةَ.

و«آتَ» أَصْلُهُ «أَلَتْ» مُضَارِعُ «أَتَى» أَيَّ جَاءَ، فَقُلِبَتْ هَمْزَتُهُ الثَّانِيَةُ الْفَاءَ، وَجَزِمَ بِإِنْ الشَّرْطِيَّةِ وَعَلَامَةُ جَزْمِهِ حَذْفُ الْيَاءِ، وَالْبَاءُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ زَائِدَةٌ.

(١) يقول الباجوري في شرحه: وعلى هذا المثل المشهور: «برة عاجلة خير من درة آجلة»، ولما كان الثواب المذكور محققاً ولا بد، أطلق عليه عاجل لأنه كالحاصل بالفعل، ولما كان الشيء الذي يأخذه من الدنيا غير محقق أطلق عليه آجل.

(٢) يقول ابن العماد الأفهسي في شرحه: قال أهل العلم: لو كانت الآخرة خزفاً يبقَى، والدنيا جوهرًا يَفْنَى، لوجب على العاقل أن يختار الخزف الباقي على الجوهر الفاني، فما ظنك بمن يأخذ خزفاً يَفْنَى ويترك جوهرًا يبقَى.

(٣) هذا هو مذهب أهل السنة. يقول الإمام اللقاني في جوهرة التوحيد:

ثم الذنوب عندنا قسمان صغيرة، كبيرة، فالثاني منه المتأب واجب في الحال ولا انتقاض إن يؤخذ للحال

١٤٦- فَإِنْ لِي ذِمَّةٌ مِنْهُ بِتَسْمِيَّتِي مُحَمَّدًا، وَهُوَ أَوْفَى الْخَلْقِ بِالذَّمِّ

فإِنْ لِي ذِمَّةٌ أَي جَوَاراً مِنْهُ، أَي مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِتَسْمِيَّتِي مُحَمَّدًا أَي بِسَبِّهَا^(١)، وَارْتِكَابُ الذَّنْبِ لَا يَقْطَعُ التَّسْمِيَّةَ، وَهُوَ أَوْفَى الْخَلْقِ بِالذَّمِّ فَيَقُومُ بِحَقِّهَا، بَأَن يَشْفَعُ فِي أَهْلِهَا. وَ«مِنْ» لِلانْتِدَاءِ.

١٤٧- إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي آخِذًا بِيَدِي فَضْلاً، وَإِلَّا فَقُلْ يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ

إِنْ لَمْ يَكُنْ أَي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي مَعَادِي أَي عَوْدِي فِي الْآخِرَةِ لِلْجَزَاءِ، آخِذًا بِيَدِي يَشْفَعُ فِي فَضْلاً مِنْهُ، وَإِلَّا، أَي وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي كَذَلِكَ، فَهُوَ بِمَعْنَى الشَّرْطِ الْأَوَّلِ تَأَكِيداً لَهُ، وَجَوَابُهَا قَوْلُهُ فَقُلْ -خَطَابٌ لِمَنْ جَرَّدَهُ مِنْ نَفْسِهِ- لِي: يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ، يَكْنِي بِهِذَا عَنْ سُوءِ الْحَالِ وَالْوُقُوعِ فِي شِدَّةٍ.

١٤٨- حَاشَاهُ أَنْ يَحْرِمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ أَوْ يَزِجَعَ الْجَارُ مِنْهُ غَيْرَ مُحْتَرَمٍ

حَاشَاهُ اسْمٌ مُضَافٌ بِمَعْنَى التَّنْزِيهِ، أَي أَنْزَلَهُ تَنْزِيهاً عَنْ أَنْ يَحْرِمَ -بِفَتْحِ الْيَاءِ، أَوْ ضَمِّهَا مَعَ كَسْرِ الرَّاءِ- أَي يَمْنَعُ الرَّاجِي لَهُ مَكَارِمَهُ، جَمْعُ «مَكْرَمَةٍ»، بِمَعْنَى

(١) وَلَيْسَ مَعْنَى تَقَاوُلِ الْإِمَامِ الْبُوصَيْرِيِّ وَاسْتِيشَارِهِ بِاسْمِهِ الَّذِي وَافَقَ اسْمَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ تَارَكَ لِلْعَمَلِ، فَقَدْ كَانَ عَالِماً عَامِلاً وَشَيْخاً فَاضِلاً وَإِمَاماً مُجِدِّاً مُجْتَهِداً، وَلَكِنَّهُ كَانَ لَا يَرْكَنُ إِلَى عَمَلِهِ وَاجْتِهَادِهِ، وَالصَّالِحُونَ دَائِماً يَبَالِغُونَ فِي الطَّاعَاتِ ثُمَّ يَتَشَبَّهُونَ بِغَيْرِ أَعْمَالِهِمْ، وَإِنَّمَا بِحَسَنِ الظَّنِّ فِي اللهِ وَرَسُولِهِ.

يَقُولُ الْإِمَامُ الْبَاجُورِيُّ: وَجْهٌ ذَلِكَ أَنَّ اخْتِيَارَهُ التَّسْمِيَّةَ بِاسْمِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَلِيلٌ عَلَى مُحِبَّتِهِ فِيهِ، فَإِنَّهُ لَا يَتَسَمَّى بِالْأَسْمِ إِلَّا مِنْ أَحَبِّ مَسْمَاهُ، ... وَفِي كَلَامِ الْمُصَنِّفِ تَرْغِيبٌ فِي التَّسْمِيَّةِ بِاسْمِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

شَفَاعَتِهِ، أَوْ عَنْ أَنْ يَرْجِعَ الْجَارُ، أَيْ الدَّخِلُ فِي جَوَارِهِ، مِنْهُ أَيْ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مُخْتَرَمٍ، بَلْ يَرْجِعُ مُخْتَرَمًا بِشَفَاعَتِهِ فِيهِ، أَيْ وَأَنَا رَاجٍ لَهُ، دَاخِلٌ فِي جَوَارِهِ.

و «الراجي» مفعول «يُحْرَمُ»، وَسَكُنَ يَأُوهُ عَلَى لُغَةٍ، ففَاعِلُ «يُحْرَمُ» النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنْ قُرِئَ «يُحْرَمُ» بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، فَالْراجي مَرْقُوعٌ نَائِبًا عَنِ الْفَاعِلِ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَ«مِنْهُ» مُتَعَلِّقٌ بِ«يَرْجِعُ» أَوْ «يُحْرَمُ»، وَ«مَنْ» لِلابْتِدَاءِ، وَ«غَيْرَ» حَالٌ مِنْ «الْجَارِ».

١٤٩- وَمُنْذُ أَلْزَمْتُ أَفْكَارِي مَدَانِحَهُ وَجَدْتُهُ لِخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمٍ

وَمُنْذُ أَلْزَمْتُ أَفْكَارِي، جَمْعُ «فَكْرٍ» وَهُوَ حَرَكَةُ النَّفْسِ فِي الْمَعْقُولَاتِ، مَدَانِحُهُ جَمْعُ «مَدِيحٍ» وَهُوَ كَالْمَدْحِ، الشَّاءُ الْحَسَنُ، وَجَدْتُهُ أَيْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِخَلَاصِي مِمَّا سَاعَنِي مِنْ مَرَضٍ وَغَيْرِهِ خَيْرَ مُلْتَزِمٍ بِكَسْرِ الزَّايِ- أَيْ بِأَنْ وَفَى بِخَلَاصِي عَلَى أَحْسَنِ الْوَجْهِ.

و «مُنْذُ» مُتَعَلِّقٌ بِ«وَجَدْتُ»، وَ«أَفْكَارِي» مَفْعُولُ أَوَّلِ ل «أَلْزَمْتُ»، وَ«مَدَانِحُهُ» مَفْعُولُهُ الثَّانِي.

١٥٠- وَلَنْ يَفُوتَ الْغِنَى مِنْهُ يَدًا تَرِبَتْ إِنَّ الْحَيَا يُنَبِّئُ الْأَزْهَارَ فِي الْأَكَمِ

وَلَنْ يَفُوتَ الْغِنَى -جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ- مِنْهُ يَدًا تَرِبَتْ أَيْ أَفْقَرْتُ، لِعُومِ الْغِنَى مِنْهُ لِجَمِيعِ الْأَيْدِي الْمُفْتَقِرَةِ، وَمِنْهَا يَدِي.

إِنَّ الْحَيَا أَيْ الْمَطَرُ، يُنْبِتُ الْأَزْهَارَ فِي الْأَكْمِ، جَمْعُ «أَكْمَةٍ» وَهِيَ الرِّيْوَةُ، بِعُمُومِ الْمَطَرِ لَهَا، مَعَ أَنَّهَا لِعُلُومِهَا مِظَنَّةٌ عَدَمِ النَّبَاتِ، لِعَدَمِ ثَبَاتِ الْمَاءِ عَلَيْهَا، فَكَمَا لَمْ يَفْتَحْهَا مَعَ ذَلِكَ النَّبَاتُ، لَمْ يَفْتِ الْغِنَى مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدًا لَا يُظُنُّ غِنَاهَا. وَ«مِنْهُ» صِفَةٌ لِلْغِنَى أَوْ حَالٌ مِنْهُ، وَ«مِنْ» لِبِتْدَاءِ الْغَايَةِ، وَ«فِي الْأَكْمِ» مُتَعَلِّقٌ بِ«يُنْبِتُ».

١٥١- وَلَمْ أَرِدْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا الَّتِي اقْتَطَفْتُ يَدَا زُهَيْرٍ بِمَا أَثْنَى عَلَى هَرَمٍ

وَلَمْ أَرِدْ بِغِنَى الْأَيْدِي مِنْهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا، أَيْ مُسْتَلْذَاتِهَا مِنَ الْمَالِ وَغَيْرِهِ، الَّتِي اقْتَطَفْتُهَا، أَيْ أَخَذْتُهَا، وَفِي نُسْخَةٍ بَدَلُ «اقْتَطَفْتُ» «اقْتَطَعْتُ»، يَدَا زُهَيْرِ الشَّاعِرِ الْجَاهِلِيِّ^(١) بِمَا أَثْنَى عَلَى هَرَمٍ بِكُسْرِ الرَّاءِ - أَحَدِ أَجْوَادِ الْعَرَبِ^(٢)، وَقَدْ وَصَلَهُ بِصِلَاتٍ كَثِيرَةٍ خَارِجَةٍ عَنِ الْعَادَاتِ، وَإِنَّمَا أَرَدْتُ الْغِنَى مِنْهُ فِي الْآخِرَةِ بِالشَّفَاعَةِ فِي الْمُتَذَبِّبِينَ.

و«بِمَا» مُتَعَلِّقٌ بِ«اقْتَطَفْتُ»، وَالْبَاءُ لِلشَّبِيهِ، وَ«مَا» مُضْدريةٌ أَوْ مَوْصُولٌ اسْمِي.

(١) هُوَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلَمَى رِبْعَةُ بْنُ رِيَّاحِ الْمَزْنِيِّ (١٣-٠٠ ق هـ) حَكِيمُ الشُّعْرَاءِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. كَانَ يَنْظُمُ الْقَصِيدَةَ فِي شَهْرِ وَيَنْقَحُهَا وَيَهْذِبُهَا فِي سَنَةٍ، فَكَانَتْ قِصَائِدُهُ تَسْمَى الْحَوْلِيَّاتِ. أَشْهَرُ شُعْرِهِ مَعْلَقَتُهُ الَّتِي قَالَهَا فِي مَدْحِ هَرَمِ بْنِ سَنَانَ، وَقَصِيدَةُ «بَانَتْ سَعَادُ» الَّتِي أَنْشَدَهَا بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

(٢) هُوَ هَرَمُ بْنُ سَنَانَ بْنِ أَبِي حَارِثَةَ الْمُرِّي (١٥-٠٠ ق هـ) يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْجُودِ، وَهُوَ مَمْدُوحُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سَلَمَى، اشتهر هو وابن عمه الحارث بن عوف بدخولهما في الإصلاح بين قبيلتي عيس وذيبيان، فتحملا نيات القتلى وكانت ثلاثة آلاف بغير، أدباها في ثلاث سنين. مات هَرَمٌ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَوَفِدَتْ بِنْتُهُ عَلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ فِي خِلَافَتِهِ، فَقَالَ لَهَا: مَا الَّذِي أَعْطَى أَبُوكَ زُهَيْرًا حَتَّى قَابَلَهُ مِنَ الْمَدِيحِ بِمَا قَدْ سَارَ فِيهِ؟ فَقَالَتْ: مَا أَعْطَى هَرَمَ زُهَيْرًا قَدْ نَسِيَ! فَقَالَ: وَلَكِنْ مَا أَعْطَاكَمَ زُهَيْرٌ لَا يَنْسَى.

الفصل العاشر: في المناجاة

١٥٢- يَا أَكْرَمَ الرُّسُلِ مَالِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمِيمِ

يَا أَكْرَمَ الرُّسُلِ -بِإِسْكَانِ السِّينِ لُغَةً فِي ضَمِّهَا- وَفِي نُسخَةِ «يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ»
أَيَّ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ غَيْرِهِ، مَالِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ -بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ- أَيَّ أَلْجَأُ إِلَيْهِ سِوَاكَ
عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمِيمِ -بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ، وَكَسْرِ الْمِيمِ الْأُولَى- أَيَّ الشَّامِلِ
لِلْخَلْقِ، وَهُوَ هُوَلُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(١). و«سِوَاكَ» بَدَلٌ مِنْ «مَنْ».

(١) يعبر الإمام البوصيري في هذا البيت عن حال الخلق يوم القيامة، كما يشير إلى ذلك حديث الشفاعة. روى البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء، بسنده عن معبد بن هلال العنزي قال: اجتمعنا -ناسٌ من أهل البصرة- فذهبنا إلى أنس ابن مالك، وذهبنا معنا ثابث [البناني] إليه يسأله لنا عن حديث الشفاعة، فإذا هو في قصره، فوافقه يصلي الضحى فاستأذنا، فأذن لنا وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، فقال: يا أبا حمزة، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة، فقال: حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال: (إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست لها ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله، فيأتون موسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بعبسى فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى فيقول: لست لها ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم، فيأتوني فأقول: أنا لها، فاستأذن على ربي فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجدا، فيقول: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه متقال شعيرة من إيمان، فأنتقل فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخرج له ساجدا، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه متقال ذرة أو خردلة من إيمان فأخرجه، فأنتقل فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخرج له ساجدا، فيقول: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنتقل فأفعل، فلما خرجنا من عند أنس قلت لبعض أصحابنا: لو مررنا بالحسن وهو متوار في منزل أبي خليفة فحدثناه بما حدثنا أنس بن مالك، فأتيناها فسلمنا عليه فأذن لنا، فقلنا له: يا أبا سعيد جئناك من عند أخيك أنس بن مالك فلم نر مثله ما حدثنا في الشفاعة، فقال: هيه، فحدثناه بالحديث فانتهى إلى هذا الموضع، فقال: هيه، فقلنا: لم-

١٥٣- وَلَنْ يَضِيقَ رَسُولَ اللَّهِ جَاهُكَ بِي إِذَا الْكَرِيمُ تَحَلَّى بِاسْمِ مُنْتَقِمٍ

ولن يضيقَ يا رسول الله جَاهُكَ بِي، إِذَا الْكَرِيمُ وهو الله تعالى، تَحَلَّى^(١) بِحَاءٍ مُهْمَلَةٍ- أَيِ اتَّصَفَ بِاسْمِ مُنْتَقِمٍ مِنَ الْمُذْنِبِينَ وَأَنَا مِنْهُمْ، فَتَجَوَّدَ عَلَيَّ بِالشَّفَاعَةِ. وجواب «إِذَا» عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ مُقَدَّرٌ بَعْدَ مَدْخُولِهَا، يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا قَبْلُهَا، وَعِنْدَ الْكُوفِيِّينَ مَا قَبْلُهَا، وَفِي نُسْخَةٍ بَدَلُ «إِذَا» «إِذْ» فَتَكُونُ تَعْلِيلِيَّةً، وَهِيَ أَوْلَى.

١٥٤- فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللُّوحِ وَالْقَلَمِ

فإِنَّ مِنْ جُودِكَ الذي جَادَ اللهُ تَعَالَى بِهِ عَلَيْكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا وَهِيَ الْآخِرَةُ، أَيِ خَيْرِيهِمَا، وَمِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا هَدَايَتُهُ النَّاسَ، وَمِنْ خَيْرِ الْآخِرَةِ شَفَاعَتُهُ فِيهِمْ.

وَإِنَّ مِنْ عُلُومِكَ الَّتِي عَلَّمَهَا اللهُ لَكَ عِلْمُ اللُّوحِ وَالْقَلَمِ. يُقَالُ إِنَّ اللهَ أَطْلَعَهُ عَلَى مَا كَتَبَ الْقَلَمُ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ، وَعَلَى عُلُومِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ^(٢)، وَهَذَا مِنْ جَاهِهِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى، وَالْجَاهُ الْقَدْرُ وَالْمَنْزِلَةُ.

يُزَادُ لَنَا عَلَى هَذَا، فَقَالَ: لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مِنْذُ عَشْرِينَ سَنَةً فَلَا أُبْرِي أَنْسِي أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَكَلَّمُوا، قُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ فَحَدَّثْنَا، فَضَحِكَ وَقَالَ: خَلَقَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا، مَا ذَكَرْتُهُ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ، حَدَّثَنِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ قَالَ: (ثُمَّ أَعَادَ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدَهُ بِتِلْكَ الْحَمَادِ ثُمَّ آخَرَ لَهُ سَاجِدًا فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يَسْمَعُ وَسَلْ تَعْطُهُ وَاشْفَعْ تَشْفَعُ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْتِنِّي لِي فِيمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَانِي وَعَظَمَتِي أَخْرِجْنِي مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

(١) وَفِي نُسْخَةٍ «تَجَلَّى»، وَالْإِمَامُ الْبُوصَيْرِيُّ فِي هَذَا الْبَيْتِ يَشِيرُ إِلَى جَاهِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَحْمَتِهِ بِجَمِيعِ أَفْرَادِ أُمَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا يَشِيرُ إِلَيْهِ حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ الَّذِي أوردناه آنفاً.

(٢) كَمَا هُوَ ثَابِتٌ فِي حَدِيثِ الْمَعْرَاجِ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا: (ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمَسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيرَ الْأَقْلَامِ) أَيِ صَوْتِ أَقْلَامِ الْمَلَائِكَةِ تَكْتُبُ مِنَ اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ.

وَيَقُولُ الْإِمَامُ الْبَاجُورِيُّ ضَمِنَ شَرْحُ الْبَيْتِ: فَإِنْ قِيلَ إِذَا كَانَ عِلْمُ اللُّوحِ وَالْقَلَمِ بَعْضُ عُلُومِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا الْبَعْضُ الْآخَرُ؟ أَجِيبُ بِأَنَّ الْبَعْضَ الْآخَرَ هُوَ مَا أَخْبَرَهُ اللهُ عَنْهُ مِنْ أَحْوَالِ الْآخِرَةِ، لِأَنَّ الْقَلَمَ كَتَبَ فِي اللُّوحِ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَقَطْ.

ومِمَّا وَرَدَ فِي سُؤَالِهِ الشَّفَاعَةَ خَبَرُ أَنَسٍ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ: أَنَا فَاعِلٌ^(١).

وَبِمَا قَرَّرْتُهُ عِلْمُ أَنَّ «مِنْ عُلُومِكَ» مَغْطُوفٌ عَلَى «مِنْ جُودِكَ»، وَأَنَّ «عِلْمُ اللُّوحِ وَالْقَلَمِ» مَغْطُوفٌ عَلَى «الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا»، وَيجوزُ أَنْ يَكُونَ «مِنْ عُلُومِكَ» مُسْتَأْنَفًا فَيَكُونُ خَبْرًا وَ«عِلْمُ اللُّوحِ» مُبْتَدَأً، وَكَرَّرَ «مِنْ» لِئَلَّا يَلْزَمَ الْعَطْفُ عَلَى مَعْمُولِي عَامِلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، إِذْ لَوْ قَالَ: «وَعُلُومُكَ عِلْمُ اللُّوحِ وَالْقَلَمِ»، لَزِمَ عَطْفُ مَخْفُوضٍ عَلَى مِثْلِهِ، وَمَنْصُوبٌ عَلَى مِثْلِهِ، فِي عَامِلَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ.

١٥٥- يَا نَفْسُ لَا تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ إِنَّ الْكَبَائِرَ فِي الْغُفْرَانِ كَاللَّمَمِ

يَا نَفْسُ -بِضْمِ السَّيْنِ وَبِكَسْرِهَا- وَالْأَصْلُ يَا نَفْسِي، لَا تَقْنَطِي -بِضْمِ النَّوْنِ أَوْ كَسْرِهَا عَلَى لُغَةٍ فَتَحِهَا فِي مَاضِيهِ، وَبِفَتْحِهَا عَلَى لُغَةٍ كَسَرُهَا فِي مَاضِيهِ- أَيِ لَا تَيَاسَى مِنْ عَفْوِ زَلَّةٍ أَيْ ذَنْبٍ، عَظُمَتْ أَيِ كَبُرَتْ. إِنَّ الْكَبَائِرَ فِي الْغُفْرَانِ كَاللَّمَمِ، وَهُوَ صِغَارُ الذُّنُوبِ، فَيَجُوزُ الْعَفْوُ عَنْهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(٢).

و «مِنْ» لِلتَّعْدِيَةِ إِنْ قُدِّرَ عَفْوٌ كَمَا سَلَكْتُهُ، وَلِلتَّغْلِيلِ إِنْ لَمْ يَقْدَرْ، وَ«فِي الْغُفْرَانِ» مُتَعَلِّقٌ بِ «كَاللَّمَمِ».

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ: سَنَنَ التِّرْمِذِيُّ، كِتَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مَا جَاءَ فِي شَأْنِ الصِّرَاطِ، وَرَوَاهُ أَيْضًا الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ.

(٢) سُورَةُ النَّسَاءِ - مِنْ الْآيَةِ ١٤٨

١٥٦- لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا تَأْتِي عَلَى حَسَبِ الْعِصْيَانِ فِي الْقِسْمِ

لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا بَيْنَ الْخَلَائِقِ، تَأْتِي عَلَى حَسَبِ أَيِّ قَدْرِ الْعِصْيَانِ، الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ، فِي الْقِسْمِ جُمُعَ «قِسْمَةٍ» بِمَعْنَى قِسْمٍ، وَ«لَعَلَّ» حَرْفُ تَرْجِيٍّ عَمُومٍ الرَّحْمَةَ لِلْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ، وَفِي خَبَرِ الصَّاحِحِينَ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي^(١).

و«حين» و«على» و«في» مُتَعَلِّقَاتٌ بِ«تأتي»، وَيجوزُ تَعَلُّقُ «في» بِ«حَسَبٍ».

١٥٧- يَا رَبِّ وَاجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ لَدَيْكَ وَاجْعَلْ حِسَابِي غَيْرَ مُنْخَرِمٍ

يَا رَبِّ فِيهِ مَا مَرُّ فِي «يَا نَفْسُ»^(٢) - ارْحَمْنِي وَاجْعَلْ رَجَائِي لِلرَّحْمَةِ غَيْرَ مُنْعَكِسٍ أَيِ خَائِبٍ لَدَيْكَ، أَيِ عِنْدَكَ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِ«اجْعَلْ» أَوْ بِ«مُنْعَكِسٍ».

وَاجْعَلْ حِسَابِي أَيِ مَا حَسَبْتُهُ وَقَدَّرْتُهُ مِنَ الْعَفْوِ غَيْرَ مُنْخَرِمٍ، أَيِ غَيْرِ مُنْقَطِعٍ عِنْدَكَ، بِأَنْ يَحْصُلَ الْمَرْجُوُّ وَالْمَحْسُوبُ مِنْ عَفْوِ ذُنُوبِي كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا.

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿يُوحِذُكُمْ اللَّهُ نَفْسُهُ﴾، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: يقول الله تعالى: (أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة).

ومن حسن الظن بالله ما أورده الحاكم في المستدرک بسنده عن جابر بن عبد الله أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: واذنوباه واذنوباه، فقال هذا القول مرتين أو ثلاثاً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قل: اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ورحمتك أرجى عندي من عملي). وصنيع الإمام البوصيري في هذا البيت يندرج تحت هذا الباب، على الرغم من أنه من العلماء العاملين والأولياء الصالحين، تأدبا مع الله عز وجل، وهضما لنفسه واعترافا بتقصيره.

(٢) البيت قبل السابق، رقم ١٥٥.

١٥٨- وَالطُّفُ بِعَبْدِكَ فِي الدَّارَيْنِ، إِنَّ لَهُ صَبْرًا مَتَى تَدْعُهُ الْأَهْوَالُ يَنْهَزِمِ

وَالطُّفُ أَي «وَارْقُ» -كَمَا فِي نُسَخَةٍ- بِعَبْدِكَ، يُرِيدُ نَفْسَهُ، فِي الدَّارَيْنِ أَي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فِيمَا قُدِّرَ عَلَيْهِ فِيهِمَا مِنَ الْمُؤَلِّمَاتِ بِتَخْفِيفِهَا.

إِنَّ لَهُ صَبْرًا عَلَى مَا يُصِيبُهُ فِيهِمَا، لَكِنْ مَتَى تَدْعُهُ الْأَهْوَالُ أَي تَطْلُبُهُ، وَهِيَ الْأُمُورُ الْمَخُوفَةُ^(١) يَنْهَزِمُ صَبْرُهُ وَلَا يَثْبُتُ، فَيَهْلِكُ هُوَ، وَبِاللُّطْفِ يَنْدَفِعُ الْهَلَاكُ، وَيَدُلُّ لِمَطْلُوبَةِ الرَّقْقِ^(٢) خَبَرُ الْبُخَارِيِّ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّقْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ^(٣).

١٥٩- وَأُذُنٌ لِسُحْبٍ صَلَاةٍ مِنْكَ دَائِمَةٍ عَلَى النَّبِيِّ بِمَنْهَلٍ وَمُنْسَجِمٍ

١٦٠- مَا رَزَحَتْ عَذَبَاتِ الْبَانِ رِيحُ صَبَاً وَأَطْرَبَ الْعَيْسَ حَادِي الْعَيْسِ بِالنِّعَمِ

وَأُذُنٌ أَي أَبْحِ^(٤)، لِسُحْبٍ صَلَاةٍ مِنْكَ دَائِمَةٍ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْهَلٍ، أَي بِمَطَرٍ شَدِيدٍ، وَمُنْسَجِمٍ أَي مَطَرٍ غَيْرِ شَدِيدٍ. وَالسُّحْبُ -بِاسْتِثْنَاءِ الْحَاءِ لُغَةً فِي ضِمِّهَا- جَمْعُ «سَحَابٍ»، وَهُوَ الْغَيْمُ، وَلَا مَ «لِسُحْبٍ» لِلتَّعْدِيَةِ، وَ«مِنْكَ دَائِمَةٍ» صِفَتَانِ لِ«صَلَاةٍ»، وَيَجُوزُ جَعْلُ «دَائِمَةٍ» صِفَةً لِ«سُحْبٍ»، وَ«بِمَنْهَلٍ» مُتَعَلِّقٌ بِ«أُذُنٍ»، فَبَاوَةُ لِلتَّعْدِيَةِ، وَقِيلَ صِفَةً لِ«سُحْبٍ» فَبَاوَةُ لِلْمُصَاحَبَةِ، وَيَتَعَلَّقُ بِ«أُذُنٍ» أَيْضاً.

(١) مَخُوفٌ: مَفْعُولٌ مِنَ الْخَوْفِ، بِمَعْنَى مُخِيفٍ.

(٢) بِاعْتِبَارِ اللَّفْظِ فِي النُّسخَةِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا الْبَيْتُ بِلَفْظِ «وَارْقُ بِعَبْدِكَ فِي الدَّارَيْنِ»، وَبِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى فِي النُّسخَةِ الَّتِي اعْتَمَدَهَا الشَّارِحُ، وَالتِّي فِيهَا «وَالطُّفُ بِعَبْدِكَ... الخ».

(٣) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ: كِتَابُ الْأَدَبِ - بَابُ الرَّقْقِ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ.

(٤) يُقَالُ «أُذِنْتُ لَهُ بِكَذَا» أَي أَطْلَقْتَهُ يَفْعَلُهُ.

ما رَنَحَتْ -بَنُونٍ وَحَاءٍ مُهْمَلَةٍ- أي مِيلَتْ، و«ما» مصدرية ظرفية، عَذَبَاتِ
الْبَابِ -بِذَالٍ مُعْجَمَةٍ- أي أَغْصَانُهُ رِيحٌ صَبَأٌ، وهي التي تأتي من المَشْرِقِ
صَوْبَ بَابِ الكَعْبَةِ فَكَأَنَّهَا تَصْبُو إِلَيْهَا، أي تَمِيلُ، وَأَطْرَبَ العَيْسَ وهي من كِرَامِ
الإِبِلِ، بَيِضٌ يَخَالِطُهَا شُقْرَةٌ -وَأَصْلُ عَيْنِهِ الضَّمُّ، كُسِرَتْ لِسُكُونِ الْيَاءِ بَعْدَهَا وَمُقَرَّدُهُ
«أَعْيَسٌ» لِلذِّكْرِ، وَيُقَالُ لِلْأُنْثَى «عِيسَاءٌ» -حَادِي العَيْسِ وَهُمْ أَصْحَابُ الإِبِلِ فِي
السَّفَرِ بِالنَّعَمِ -بِفَتْحِ النُّونِ- أي بِالصَّوْتِ الْحَسَنِ.

و«حادي» فاعل «أطرب»، من «حذا يحذو حدوا» وهو سوق الإبل والغناء
لها فَتَطْرَبُ، وَالطَّرَبُ خِفَةٌ تَنْشَأُ عَنْ سُرُورٍ، مُقْتَضِيَةٌ لِلهَرَّةِ وَالْحَرَكَةِ^(١).

وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ شَبَّهَ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّتِي يَطْلُبُ
عُمُومَهَا فِي الْأَوْقَاتِ بِالسُّحُبِ الَّتِي تَعُمُّ الْأَفَاقَ، وَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهَا أَنْ تَدُومَ
عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصَلَاةٍ، مُدَّةَ التَّرْنِيحِ وَالْإِطْرَابِ، فَمَا ذَكَرَهُ مِنْ
أَنْ لِلصَّلَاةِ الْمَذْكُورَةِ سُحْبًا وَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِمْطَارَهَا مُدَّةَ مَا ذَكَرَ، مِنْ تَخَيُّلَاتِ
الشُّعْرَاءِ.

وَحَكِي عَنْهُ رَجِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: حَصَلَ لِي خَلْطٌ فَالِجٌ^(٢) أَبْطَلَ
نِصْفِي، فَأَنْشَأْتُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ وَنِمْتُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَسَحَ
بِيَدِهِ الْمُبَارَكَةِ عَلَيَّ، فَعُوفِيتُ مِنْ وَقْتِي، وَخَرَجْتُ أَوَّلَ النَّهَارِ، فَلَقِينِي بَغْضِ
الْفُقَرَاءِ، وَسَأَلَنِي هَذِهِ الْقَصِيدَةَ، وَلَمْ أَكُنْ أَعْلَمْتُ بِهَا أَحَدًا، وَقَالَ لِي: سَمِعْتُهَا
الْبَارِحَةَ تُنْشَدُ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَتَمَائِلُ تَمَائِلَ الْقَضِيبِ،
فَأَغْطَيْتُهَا لَهُ، فَاسْتَهَرَّتْ حَتَّى صَارَتْ يُتَبَرَّكُ بِهَا. قَالَ: وَرَأَى فُلَانٌ فِي النَّوْمِ

(١) من ذلك ما أورده البخاري ومسلم وغيرهما أن رجلا يقال له أنجشة كان يسوق بأمهات المؤمنين
ويحذو للإبل أثناء سيره، فكان إذا حذا أعنت الإبل، أي أسرع، فقال له صلى الله عليه وسلم:
«ارفق يا أنجشة ويحك بالقوارير».

(٢) الفالِج: شلل يصيب أحد شقي الجسم، وهو المسمى في الطب الحديث بالشلل النصفي.

-وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى الْعَمَى - قَائِلًا يَقُولُ لَهُ: اجْعَلْ الْبُرْدَةَ عَلَى عَيْنِكَ تَفْقُ،
فَحَصَّلَهَا وَجَعَلَهَا عَلَى عَيْنَيْهِ، وَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَعُوفِي لَوْقَتِهِ.

وَكَأَنَّ النَّاطِمَ أَشَارَ بِالْعَذَابَاتِ إِلَى عَذَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِتَمَائِلِهَا
بِتَمَائِلِهِ عِنْدَ سَمَاعِهِ الْمَذْحِ، وَبِالْبَانِ إِلَى ذَاتِهِ لِطَيْبِ رَائِحَتِهَا، كَطَيْبِ رَائِحَةِ مَا
يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْبَانِ، وَبِالْعَيْسِ إِلَى أُمَّتِهِ لِطَرِيهِمْ عِنْدَ سَمَاعِهِمْ مَا ذُكِرَ، كَطَرَبِ
الْعَيْسِ الْمُسْتَلْزَمِ لِسُرْعَةِ سِيرِهَا عِنْدَ سَمَاعِ صَوْتِ حَادِيهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

تم شرح البردة لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري
بحمد الله تعالى وعونه.

فهرس الكتاب

مقدمة الناشر	٥
١- سلسلة «تراث الأزهرين»	٥
٢- التعريف بشارح البردة شيخ الإسلام زكريا الأنصاري	١٣
٣- التعريف بناظم البردة الإمام شرف الدين البوصيري	٢٣
٤- تقديم الكتاب بقلم الدكتور عطية مصطفى	٢٨
البردة وفن الخط العربي	٤١
متن قصيدة الكواكب الدرية في مدح خير البرية	١٠٥
الزبدة الرائقة في شرح البردة الفائقة	١٢٧
الفصل الأول: في الغزل وشكوى الغرام	١٢٩
الفصل الثاني: في التحذير من هوى النفس	١٣٦
الفصل الثالث: في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم	١٤٥
الفصل الرابع: في مولده عليه الصلاة والسلام	١٦٥
الفصل الخامس: في معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم	١٧٣
الفصل السادس: في شرف القرآن	١٨٦
الفصل السابع: في إسرائه ومعرجه صلى الله عليه وسلم	١٩٥
الفصل الثامن: في جهاد النبي صلى الله عليه وسلم	٢٠٤
الفصل التاسع: في التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم	٢١٧
الفصل العاشر: في المناجاة	٢٢٣